قصص

سراج



رضوى عاشور

سراج

رضوى عاشور

الفهرس

(١)

آمن والبحر

آمنة تخشى البحر ولكنها تكذب على قلبها، تستيقظ قبـل صياح الديك وتبدأ يومها بالذهاب إلـى الشـاطئ، تشـخص بعينيها في الظلام وتهمس بالدعاء.. بعدها تقصـد المينـاء، وتسأل: "هل من جديد؟"، "لا جديد".

تمشي في السكة الموصلة للتلة ثم تبدأ في الصعود إلـى البيت العالي تمر بالأقبيـة وتسـمع الأصـوات المكتومـة والهمهمات وتواصل الصعود إلى بيوت الحريم التـي يلفهـا الصمت وصوت ارتطام الموج.

تصل إلى ساحة المطبخ وقد تبدد الظلام واكتست السماء بألوان الشروق فتسمى باسم الـرحمن وتشـرع فـي نقـل الأجولة، تفتحها واحدا بعد الآخر ثم تبدأ في نخل الطحـين، ولا تصل النساء إلا وآمنة قد انتهت مـن العجـين وتركتـه يختمر، تتوافد النساء للعمل والعبيد يحملون الوارد اليـومي من الذبائح وسلال السمك وصناديق الخضر والفاكهة.

وبعد أن يؤذن لصلاة العصر تعقد آمنة منـديلها علـى رغيفي خبز، أجرها اليومي، وتحمل صرتها وتعود أدراجها وعلى ثوبها وغطاء رأسها ذرات الطحـين، وفـي جسـدها يختلط عرق اليوم برائحة العيش المخبوز.. تمـر بالمينـاء: "هل من جديد؟" ثم تواصل إلى الشاطئ وتجلس في مواجهـة البحر.. تنتظر.

كانت صغيرة يلثغ لسانها ولا يزيد طولها على الأشبار الخمسة عندما اصطحبها جدها في ليلة أضـاء فيهـا البـدر الرجال والبحر.. كانوا يركبون الإبل ويسـيرون بمحـاذاة الشاطئ وهم يغنون.. كانت خائفة رغـم الغنـاء والضـوء وذراع جدها القوية التي تحيط بها وهي تركب أمامه علـى الناقة.

البحر في جزر وهم يتوغلون في الرمل المبلل بحثًا عن العنبر.. تطلعت إلى القمر مأخوذة ثم أدارت رأسها في ذعر وبدأت تبكي وتلح في طلب العودة إلى أمها، فهل كان قلبهـا يعلم فحدثها؟!

الرجال يخرجون للبحر، يذهبون ويعودون.. يذهبون ثم لا يعودون فتخرج النسوة للانتظار وقد يبس الخوف أكتافهن

وحفر أخاديده في وجوههن.. شاهدت آمنة كل شيء: لطـم الخدود، ساعة يتأكد الخبر، وشق الثياب والعويل الذي يقطع الفضاء ويشطره كما يشطر سكين السياف الرأس الحي عـن الجسد.

يقولون إن البحر كريم وهي تخشى غدره ولكنها أبدا لا تفصح بل تكذب.. حتى على قلبها.

***

استيقظت آمنة وأفرطت رغيف خبز وثـلاث تمـرات وشربة ماء وقصدت البيت العالي.

كالمعتاد سمعت المؤذن يؤذن لصلاة الفجر وهي تصعد التلة ولكنها على غير المعتاد وجدت أم لطيف الرئيسة وتودد تتسلمان الوارد اليومي من العبيد الذين كانوا قد بكّـروا هـم أيضا في المجيء.. وعندما أخذت آمنة تفتح أجولة الطحـين انتبهت إلى كونها أكثر من كل يوم ثم رأت العبيـد يـأتون بالمزيد من الذبائح والسلال والصـناديق "هـل هـو يـوم الخميس؟" في ذلك اليوم تقوم النساء بطهو طعام أوفر وأشهى لأن السلطان يدخل بامرأة جديدة ويجـب أن تعـم الـوفرة

والفرح على أهل بيته ولكنه لم يكن الخميس وما حمله العبيد أضعافًا مضاعفة، فما المناسبة يا ترى؟!

قبل الضحى كانت ساحة المطبخ قـد اكتظـت بالنسـاء اللاتي انهمكن في إعداد الطعام.. وأعلنت أم لطيف بصوتها الجهوري أن العمل في المطبخ سيستمر يومين متتـاليين لأن السلطان يقيم وليمة كبيرة في اليوم التالي.

هل ينوي السلطان الزواج بامرأة ثانية غير السيدة علياء بنت المحسن زوجته الشرعية وصاحبة الأمر والنهـي فـي البيت العالي؟ للسلطان أكثر من خمسين جارية دخـل بهـن وأنعم ا عليه بالعشرات من البنين والبنات، بعضهم تـزوج وأنجب له الأحفاد وبعضهم مازال رضيعا على صدر أمه.. ولكن السيدة علياء – وهذه إرادة ا العلي القدير – بقيت بلا ذرية تدب بقبقابها المطعم بالذهب والجواهر فترتجف القلوب رهبة ويركض الصغار فزعا ولا يتنفس أهل البيت العـالي الصعداء إلا عندما تحمل بنت المحسـن هـداياها النفيسـة وترحل إلى اليمن بصحبة خادماتها لزيارة والـدها.. ولكـن غيابها لا يدوم إلا شهرا تعود بعده لتنشر العبوس والخـوف حيث تدب بقبقابها المرصع.. امرأة صارمة جامدة القلـب لا

تبتسم فهل امتدت قسوة قلبها إلى أحشائها فصـارت أرضـا حجرية لا تثمر فيها بذور أم تحجر قلبها حسرة على غيـاب الخلف؟ تساءلت آمنة وهي تقف أمام النار تسوي الأرغفة.. غيبة الأولاد لا تحجر القلب العطوف، عمار كان يخبئ قطعة السكر في جيبه لسعيد، عمار المقطوع كفرع شجرة، لا أب، لا أم، لا زوجة، لا أولاد ويمتد رغم ذلك كأفرع الياسـمين على جدران الدور يحكي الحكايات للصغار الذين يطـالبون بها أمهاتهم ساعة النوم "نريد حكاية من حكايات عمار" نفس الحكايات التي قصها عليها وهي طفلة.

– احك لي حكاية يا عمار.

– حكاية الضفدع الذي تزوج باثنتين وصار ينق شـاكيا طول الليل أم حكاية الصندوق الذي لملم فيه الأطفال النجوم؟

– حكاية الشمس والقمر..

يقصها عمار فتضحك آمنة وتمسك بطرف جلبابه لكي لا يتركها.

– لابد أن أعود إلى القلعة يا آمنة.

– سأتركك تذهب بعد أن تحكي لـي حكايـة صـندوق النجوم.

فيحكي لها الحكاية ثم يمضي إلى عمله.

"غيبة الأولاد لا تحجر القلب العطوف".. تمتمت آمنة وهي تواصل الخبيز.

بعد صلاة العشاء توقفت النساء عن العمل وجلسن لتناول الطعام، رغيف لكل واحدة وحبات من التمر.. سألت أحداهن الرئيسة:

– با   عليك يا أم لطيف ما المناسبة في تلك الوليمة؟

راوغت أم لطيف في الإجابة منتفخة الأوداج لكتمانها ما تود النساء معرفته.

– هل يتزوج السلطان بامرأة أخرى؟

فزت أم لطيف واقفة كأنما بنت المحسن فاجأتها بالدخول، وصاحت موبخة وجسدها البدين يهتز منفعلاً:

– يا خرقاء يا مجنونة، سأقطع لسانك إن سمعتك تتفوهين بمثل هذا الكلام.

السيدة علياء ابنة سلطان وهي سيدة الجزيرة فكيف يتزوج السلطان عليها؟!

– ما المناسبة إذن؟

– سيزور الجزيرة ضيوف كبار.

– هل يزورنا سلطان زنزبار؟

– هل يأتي والد السيدة علياء من اليمن؟

– هل يطلب أحد أمراء عمان واحدة من بنات السلطان؟

كانت الأسئلة تنهمر على أم لطيف من النساء وقد أحطن بها ولكنها لم تقل شيئًا بل قامت متثاقلة إلى بيت الخلاء، ثم عادت وهي تبتسم ابتسامة مزهوة عارفة بكل شيء وجلست في صمت وأن لم تتوقف عيناها عن التطلع إلى الوجوه في انتظار مواصلة الحديث. ولكن النساء الباديات التعب اضطجعن مستسلمات للنعاس فلم تملك أم لطيف الانتظار أكثر وأعلنت بصوت أرادته هامسا وأن رن كالجرس:

– غدا تأتي ملكة الإنجليز لزيارة الجزيرة.

قامت النساء اللاتي لم يكن النوم قد غلبهن بعد واعتدلت الأخريات في جلستهن ليصخن السمع.

– الإنجليز؟

– نعم ملكة الإنجليز!

– وهل تحكم الإنجليز امرأة؟!

– تحكمهم امرأة، هكذا الأجانب كل شيء عندهم معكوس!

قالت تودد وهي تبتسم في خبث:

– كل شيء عندهم معكوس، يلبسون القباقيب في كفوفهم ويسيرون على أيديهم!

صاحت امرأة بدهشة – سبحان ا !

ضحكت تودد.

همست أم لطيف كأنها تفشي سرا خطيرا:

– ستأتي ملكة الإنجليز مع زوجها ولكن زوجهـا لـيس الملك إنه فقط زوج الملكة.

– لا إله إلا ا !

– وهل تستطيع الملكة شراء العبيد؟

– طبعا تستطيع.

– وتستطيع مضاجعتهم بالحلال؟

هنا حارت أم لطيف وأربكها السـؤال كأنـه معضـلة مستحيلة الحل فلم تجب.

قالت تودد:

– لو كان مسموحا في شرع الإنجليز أن تضاجع الملكة عبيدها بالحلال فلابد أن الأولاد ينسبون إليها، أليس كذلك يا أم لطيف؟

بقيت أم لطيف صامتة حتى أتاها سـؤال آمنـة كقشـة الغريق.

متى تصل السفينة يا أم لطيف؟

– غدا بعد صلاة الظهر، هذا ما قالته السيدة علياء.

لم تكن آمنة منشغلة بحديث النسوة ولا بحل معضـلة أم لطيف، كان قلبها يرفرف رجاء فمن يدري لعل بحارة سفينة الملكة رأوه أو لعله عاد معهم، هل يعود معهم؟ قضت آمنـة ليلتها بلا نوم تفكر في سفينة راسية يطل منها وجـه سـعيد كالقمر.

في الصباح اكتظت ساحة المطبخ بالنساء وقد انهمكن في الإعداد للوليمة، يخلطن الأرز بالتوابل والزبيـب واللـوز، يحشين الخراف، ينظفن الأسماك ويقلينها، يعددن الخضـرة لطهوها، وجاءت نساء السلطان لصنع مـأكولات شـهية لا يعرف أسرارها إلا هن، النسـاء الشركسـيات والحبشـيات والروميات انفردت كل مجموعة منهن بركن مـن المكـان لإعداد أطباق يبهرن بها أقرانهن وتشهد بتفوق عرقهن.

ثم ظهرت علياء بنت المحسن ودارت في الساحة تراقب العمل وتلقي بتعليماتها وأوامرها. ورحبت بها نساء السلطان

وداريـن الكره وراء ابتسامات الولاء وعبارات التحية وتبعتها أم لطيف لاهثة تكرر "أمرك يا سيدتي"، "رضاك هو عين المراد"، "تأمرين فنطيع يا جوهرة الجزيرة وولية نعمتها" وما أن غادرت بنت المحسن ساحة المطبخ حتى هرولت أم لطيف إلى بيت الخلاء وغابت حتى بدا أنها سوف تقيم فيه.

ضحكت تودد ومالت على آمنة وهمست:

– بنت المحسن طويلة كالنخلة وأم لطيف تتبعها مفرطة القصر يكاد القيام لا يزيد في قدها. مسكينة أم لطيف!

– تودد، هل تذهبين معي لسؤال البحارة الإنجليز عن سعيد؟

– أذهب.

وما أن انتهت آمنة من عملها حتى طلبت من أم لطيف أن تسمح لها هي وتودد بالذهاب.

احتجت الرئيسة بأنه "لا وقت، ولا داعي" ودارت دورة في الساحة تباشر العمل ثم عادت وقالت "اذهبي يا آمنة لعلك تسمعين خيرا.. ا كريم.. أذهبي معها يا تودد".

في الطريق سمعت آمنة وتودد طلقات المدافع التي لم تكن تطلق إلا مرتين في العام، ليلة العيد الصغير وليلة العيد

الكبير. استبشرنا خيرا وواصلنا الهبوط من التلة حتى أبصرنا الحشد الصاخب والرجال المصطفين عند مدخل الميناء ينفخون أبواقًا نحاسية ويدقون طبولاً معلقة برقابهم.

ثم ظهرت الملكة: امرأة بدينة تلبس ثوبا يكشف عن نحرها ويكسم خصرها ويتسع أسفل الخصر مثقلاً بالثنيات منتفخًا كأنه خيمة تتسع لعدة أشخاص. ملامح وجهها الدقيقة تكاد تغرق في وجه كروي مورد يعلو كتفيها مباشرة كأنها بلا رقبة وعلى رأسها تاج وعلى صدرها قلادة وفي أذنيها قرط وفي أصابعها خواتم وعلى رسغيها أساور كلها من الماس يلتمع التماعا في ضوء شمس الظهيرة. سارت الملكة بخطى وئيدة بصحبة السلطان الذي بدأ بجوار جسمها الرضراض نحيلاً وهزيل البنيان يلبس جلبابا أبيض وعباءة موشاة وعلى رأسه عمامة، ومن خلفهما سار رجال بيض في زي أشبه بملابس قباطنة البحرية.

رافق السلطان ضيفته إلى مركز الساحة حيث نصب ميزان كبير صعدت الملكة على إحدى كفتيه واستغربت آمنة عادات الإنجليز الذين يزنون ملكتهم هكذا في الميادين. استدارت لتودد وهمست لها باستنكار:

– هل يفعلون ذلك لمعرفة كم يزيد وزنها في بلادنا؟!

تقدم العبيد من الميزان وأخذوا يحملون كفتـه الأخـرى بسبائك الذهب.

هتفت تودد:

– السلطان يريد إكرام الملكة بإهدائها وزنها ذهبا!

علق رجل يقف بالقرب منهما:

– ولكن هذا خراب بيت، أنها بدينة جدا!

ابتسمت تودد بسخرية:

– وما عليها من ملابس وحلي يزن عدة أرطال!

وتمتمت آمنة:

– سبحان ا .. سنة الأغنياء عجيبة!

نزلت الملكة عن الميزان وصـافحت السـلطان وسـار الموكب في اتجاه القلعة وسط صخب الحشـد ودق الطبـول ونفخ الأبواق. وذهبت تودد لتأتي بحافظ لكي يعينهمـا فـي إيجاد شخص يتحدث الإنجليزية ليسأل البحـارة الإنجليـز. وجلست آمنة تنتظر حتى عادت تـودد بحـافظ والشـخص المطلوب فقصدوا البحارة.

"صبي في الرابعة عشرة اسمه سعيد وأبوه عبد ا   وأمه آمنة. وجهه أسمر وشعره أجعد وعيناه خضـراوان وتحـت حاجبه الأيمن ندبة قديمة. أن يلبس جلبابا أبـيض ويتحـرز بحجاب بحجم نصف كفي".

"اسمه سعيد وأبوه عبد ا   الغواص وأمه آمنة الخبازة".

أظلمت الدنيا وآمنة وتودد وحافظ يتبعون الفتـى الـذي يتحدث لغة الإنجليز ويعيد الكلام المرة تلو المرة على مسامع البحارة الذين جاءوا على سفينة الملكة. ينصتون ثم يهـزون رؤوسهم بالنفي.

(٢)

هموم السلطان

ما أن أبحرت سفينة الملكة حتى استدار السلطان عائـدا إلى القلعة وهو يتمنى ألا تعود سفينة للإنجليز لترسو علـى شواطئ جزيرته بعد ذلك أبدا.

عندما تقدم إليه الأدميرال سيمور بطلبه نيابة عن حكومة جلالة الملكة طلب مهلة للتفكير. فكر في الكتابة إلى سـلطان زنزبار ليسأله النصح والمشورة ثم عدل تحسـبا فمـاذا لـو استفاد هذا الثعلب من ورطته؟ قد يظن به الضعف ويجـرد حملة ويستولي على الجزيرة وقـد يتواطـأ مـع الإنجليـز فيخلعونه وقد يعينون بنت المحسن حاكمة بدلاً منـه، ألـيس أبوها في اليمن صديقهم وحبيبهم، ألا تحكم الإنجليز امرأة؟.

الإنجليز شر لابد منه. أيقن بذلك منذ سـنوات فأرسـل بابنه محمد للدراسة في بلادهم. قال له: "أذهـب يـا محمـد وانتبه لكل ما يحدث من حولك ويحيط بك وكن لـي العـين الثاقبة وعد لتحكي لي عن سنتهم وقانونهم وعرفهم وتفاصيل حياتهم. أخبرني بكل شيء وكن حريصا على نفسك ومالـك

ودينك ولا تخالطهم إلا بالقدر الذي يخدم غرضك وبعثتـك. ولا تعاقر من النساء إلا ما أحلت لك أيمانك من جواريـك. ولا تأكل لحم الخنزير ولا تشرب الخمر وإلا أضعت عقلـك وانطمست فكرتك وصرت كأولئك البحارة في الحكاية القديمة الذين أكلوا من طعام المجوس فصاروا كالإبل لا يعلمون ما يفعل بهم يأكلون فيتسع جوفهم فيزيد لهـم المجـوس حتـى يسمنون فيذبحونهم ويأكلونهم".

فتح السلطان خزانة وأخرج منها الصندوق الذي يحـتفظ فيه بمراسلاته وأخذ منه رسالة محمد ليعيد قراءتها:

"هذه بلاد أمرها عجيب وشرعها غريب وأعراف أهلهـا تختلف عنا غاية الاختلاف.

ملكتهم تتربع على العرش وتلبس تـاج الملـك ولكـن صولجان الحكم ليس في يدها بل في يد وزراء لهـم رئـيس ومجلس مختار يناقش أمور الدولة ويفتي في شئونها ويـدفع للملكة أجرا سنويا معلوما.

وفي البلاد زراعة وتجارة وصناعة تدور معامل الصناعة ليل نهار بآلات ضخمة لم تشاهد عين مثلها من قبل. ويشغل الآلات الألوف المؤلفة من الرجال والنساء والأطفال.

وإن اختلف الشغيلة مع أصحاب المعامل في شأن مـن شئونهم يخرجون مجتمعين إلى الشارع ويسدونه وهم يهتفون بمطالبهم وقد يشتبك معهم رجال الدرك الـذين تسـتأجرهم الحكومة لحفظ أمنها.

والنساء في البلد سافرات منهم من يلزم داره ومنهن من يشتغل في المعامل ومنهن من يدرس في معاهد العلم. ولقـد شاهدت جمهرة من النساء ازدحمت بهن الطريـق يطـالبن بالمساواة مع الرجال في اختيار أعضاء المجلس الذي يسـير أمور الحكم والسياسة.

عاصمتهم أكبر من جزيرتنا، شوارعهم واسعة تضـيئها الفوانيس المغروسة على جانبي الطريق كالأشجار، مـوانئهم مزدحمة بسفن كالعمارات، وحوانيتهم مكدسة ببضائع واردة من مشارق الأرض ومغاربها ومعامل صناعتهم تتجاور في مناطق بعينها يصطبغ هواؤها بالسواد الذي تنفثـه المـداخن العالية.

وهذا يا والدنا السلطان ليس إلا القليل من الكثير الـذي رأيناه وأدهشنا وسوف نوافيكم بالمزيد".

أعاد السلطان قراءة رسالة محمد ثم طواها وأرجعها إلى حيث يحتفظ بها.

الإنجليز يضـغطون الآن ومنـذ سـنوات، يضـغطون ويتحكمون ولا يرحمون حتى أصدقاءهم المقربين وها هـو سلطان زنزبار يعاني الأمرين منهم ويضطر لمسايرتهم حتى وهو يرى خراب بلاده فيما يفرضونه وهو بلا حول ولا قوة كعصفور بين مخالب صقر.

رأى بأم عينيه كيف أملوا على والـده السـلطان خالـد رحمه ا الامتناع عن الاتجار في الرقيق. تجارة كلها خيـر تجلب المال الوفير وتوفر العبيد عماد الزراعة في الجزيرة. كانت السفن تذهب إلى الشواطئ الإفريقية تهاجم ما تيسر من القرى، وتعود محملة بـذهبها الأسـود فيبيعـون بـالحلال ويحتفظون بالأشداء من الرجال والنساء. ولكـن الإنجليـز ضغطوا ثم هددوا حتى اضطر والده، رضوان ا عليه، إلى الرضوخ. قال والده – "الحمد يا بني مزارعنا آهلة بالعبيد وهم يتوالدون بإذن ا ونعمته".

ثم توفى الوالد الكريم وخاف ذلك الأبله علّي الدين الذي وفقه ا في التخاص منه فوطد ملكه وأقام دولتـه بالعـدل

والحق فماذا لو أتى الإنجليز الآن ونقلوا نظامهم إلى جزيرته وسمحوا للعبيد بالخروج مجتمعين يعلنون مطالبهم كما يفعل شغيلة المعامل في بلادهم؟!

العبيد مناكيد لا ينفع معهـم إلا العصـى والسـياط. أن تتساهل في أمرهم يقلبون أوضـاع الجزيـرة علـى عقـب وينصبون أنفسهم أسيادا عليها. كان والده، طيب ا ثـراه، حكيما ثاقب البصر قال: "احذر العبيد يا نعمان هـم نصـف سكان الجزيرة إن قاموا علينا ضاع ملكنا وضـعنا. تصـدق عليهم من مالك ولكن إياك والتساهل معهم، إن ترى بـوادر تمرد لدى شاب من شبابهم الق به في القبو عبرة للآخـرين.. لا تنتظر أن يفعل شيئًا بل اكسره قبـل أن يتجاسـر علـى الفعل.. هكذا تجتث الكبر من نفوسهم وتبـث الخـوف فـي قلوبهم وتضمن انصياعهم لسلطانك.. الصـيادون والبحـارة والحدادون والنجارون أولئك جميعا مقدور عليهم فهـم أقـل عددا وأصغر تجمعا والحقد في أفئدتهم أقل اضـطراما.. لا تأمن أحدا يا بني، احذر الجميع ولكن عليك بالحذر من العبيد خصوصا فالغدر من طبعهم وهم أنجاس مناكيد ورثوا عـن إبليس داء الكبر ولولا غضب ا ، عليهم لما خلقهم عبيدا".

امتنع الوالد، رحمه ا ، عن الاتجار في العبيـد وكتـب التزما على نفسه ولكن سفن الإنجليز التي جـاءت للتفتـيش والتأكد بقيت تروح وتجيء في المنطقة بحجة منع القرصـنة وضمان حماية التجارة وأمانها.

وعندما تولى السلطان جاءوا يطالبونه بالامتنـاع عـن تأسيس أية محطة لدولة أخرى في جزيرته فوعدهم. ولكنهم كانوا يريدون الصك المكتوب فكيف يقول لهم لا وليس لديـه قوة يعارضهم بها. كان الاختيار صعبا وكلا البديلين مر، إن قال لا خلعوه وإن قال نعم قيدوه، أعطاهم الصك:

"أنا الفقير   تعالى نعمان بن خالد سلطان جزيرة غـرة بحر العرب أتعهد وألتزم على نفسي أن لا أدخل في قـرار ولا اتفاق ولا محاورة مع دولة أخرى بغير رضى ورخصة الدولة البهية الإنجليزية. ولا أقبل ولا أمـنح ولا أبيـع ولا أرهن أي جزء من أرض الجزيرة لوكلاء أو رعايا أي دولة أجنبية.

ورغبتي أن أكون في عهـدة وحمايـة الدولـة البهيـة الإنجليزية ملتزما بآرائها وأنظارها وا   على ما أقول شهيد".

كان يعرف وهو يوقع الصك أنه كالأحمق الـذي يفـتح للغريب بابه ويدعوه إلى عقر داره ولكن لم يكن باليد حيلة.. ولا كان بمقدوره أن يقول لا ناشزة وقد انصاع غيـره مـن حكام أكبر وأقوى.

شره الإنجليزي بلا حدود وهاهم الآن يطالبون بإنشـاء محطة لعسكرهم في جزيرته.

خرج السلطان إلى إحدى شرفات القلعة وشخص بعينيه إلى ساحل الجزيرة. كان مهموما منقبض القلب يفكـر فـي ملكه المهدد: حر أمواله، هذه الجزيرة وأرضـها وعبيـدها واللؤلؤ في أعماق بحرها والعنبر الطافي علـى أمواجهـا – ملكه الموروث بالحلال فكيف يحتفظ به؟ إن سمح للإنجليـز بإنشاء المحطة يجتاحونه بعسكرهم وتجارهم وإن لم يسـمح يفرضون مطلبهم بالقوة وقد يخلعونه أو يحتفظون بـه كمـا احتفظوا بأبي زوجته وغيره من سلاطين القبائـل المتاخمـة لعدن بلا حول ولا قوة يخدمون الإنجليز في مقابـل راتـب شهري لا يتجاوز الخمسمائة ريال. والألمان ليسوا أفضل ولا أكرم، إن لجأ إليهم يكون كالمستجير من الرمضـاء بالنـار فيأتي الألمان ويأتي الإنجليز ويتقاسمون الجزيـرة ويصـير

محاصرا ومسحوقًا بين الاثنين. بدا للسلطان أن هناك حربة مصوبة إلى كل من عينيه وأن عليه أن يختار إحداهما ليطعن فيها.

على مدى الأسابيع الثمانية التالية ركب الغم السلطان فلم يدخل بأي امرأة جديدة ولا ضاجع أيا من نسائه القديمات حتى انتشرت الأقاويل في البيت العالي ومنه إلى باقي الجزيرة. قال البعض أن السلطان مريض وقال البعض الآخر أنه لم يعد قادرا على النكاح وسرى الهمس بأن أحدا من أعدائه قد سحر له فأصبح عنينًا بين ليلة وضحاها وتطلعت العيون إلى بنت المحسن وهي تدب بقبقابها المطعم بالذهب والجواهر فمن غيرها يكون الفاعل؟

ثم وصل الأدميرال سيمور موفدا من قبل حكومة جلالة الملكة فأكرم السلطان وفادته وأعلنه أنه يرحب بأن يكون لعسكر الإنجليز محطة في "غرة بحر العرب" وأن وجود هذه المحطة خير للجزيرة وشرف لأهلها وتكريم لحكامها.

لنا شرط واحد فقط، سنقتطع لكم المكان الذي تطلبونه من شواطئها والمساحة التي تحتاجون إليها وشرطنا الوحيد

ألا تسمحوا لمعسكركم بالخروج من المحطة ولا الاخـتلاط بأحد من سكان الجزيرة.

قال الأدميرال سيمور:

- من حيث المبدأ لا مانع لدينا ولكـن هنـاك بعـض الاعتبارات العملية التي يجب التفكير فيها.

- مثل؟

- مثل تموين المحطة وخدمتها.

- هذه مسائل صغيرة يا سيدي الأدميرال، سنوفر لكـم الحبوب واللحوم والخضراوات والفاكهة والماء العذب وعددا من العبيد لخدمتكم.

هؤلاء العبيد هبة مني يصبحون من حر أموالكم يقيمون مع عسكركم في المحطة ولا يغادرونها ولا يعـودون إلـى مخالطة أحد من أهل الجزيرة.

تم الاتفاق وسجل كتابة على الورق ووقع على الأدميرال سيمور ممثلاً لحكومة جلالة الملكة ومهره السلطان بختمـه السلطاني.

(٣)

ذكرى ما جرى لسعيد

عاد سعيد إلى الميناء فلم يجد السـفينة راسـية.. سـأل عشرات البحارة والحمالين وقطع الميناء من أقصاه مـرات عديدة حتى مالت الشمس ثم غـاب قرصـها وراء البحـر وأعتمت الدنيا وتوغل الليل.

جلس منهكًا وجائعا لا يصدق أن السفينة أبحرت بدونـه ولا يفهم لماذا غادرت قبل موعدها.

عندما كان يفرط في الضحك مع صديقه حافظ كانت أمه تتوجس وتتمتم: "اللهم اجعله خير". فهل كانـت تعـرف أن المتعة العظيمة لابد وأن يعقبها هم كبير؟!

لم يسعد سعيد في حياته كما سعد في اليوم السابق وهـو يتبع الولد محمود في شوارع المدينة التي بدت له كصـندوق للعجب، فرجه الولد محمود على الوابور الحديدي الذي ينفث الدخان ويجري على عجل ويطلق صفيرا كصفير السفن كما فرجه على المركبات التي تجرها الخيول في الطريق الممهد فلا يثير وقعها غبارا.. شاهد قلعة قايد باي الأكبر من قلعـة

السلطان وقصر الخديوي الأضخم من القلعتـين ورأى بـأم عينيه الأماكن التي يرتادها الناس، يجلسـون علـى مقاعـد ويطلبون المشاريب فتأتيهم وهم جالسون كالأمراء.. عنـدما يرجع إلى الجزيرة ويحكي لحافظ قد لا يصدقه ويظن نصف كلامه من صنع الخيال.

قال له الولد محمود:

– يا بختك يا عم.. تركب السفن وتطوف البلاد وترجع كما السندباد البحري تسكن في قصر وتدعو أصحابك وتقـيم لهم الأفراح والليالي الملاح!

– ومن هو السندباد البحري؟

– ألم تسمع به؟!

– لا..

– ولا الشاطر حسن؟!

– لا أعرفه.

فسأله الولد محمود مستغربا:

– ولا عرابي؟!

ثم بدأ يحكي له حكاية وراء أخرى ينتقل مـن الشـاطر حسن وهو يواجه الغولة فتقول له: "لولا سلامك سبق كلامك

أكلت لحمك قبل عظامك" إلى عرابي على حصانه في الميدان يقول للخديوي: "لسنا عبيدا ولست سيدنا" إلى الخواجة الذي يعمل أخوه في بيته "له وجه كمؤخرة السعدان ويأكل رطلين من اللحم كل يوم" إلى السندباد الذي حمل شيخًا مريضا على كتفيه ثم رأى حوافره فعرف أنه الشيطان متنكرا.

وكان سعيد يمشي وراء صاحبه مشدوها بحكاياته وظرفه وتعليقاته الساخرة ورغم كلام الولد محمود عن كونه محظوظًا بركوبه البحر فقد كان سعيدا يشعر أن المحظوظ هو محمود لأنه يعيش في هذه المدينة الجميلة الواسعة العامرة بالبنايات والعجائب.

سار معه من برج قايد باي إلى برج السلسلة ومن محطة الإسكندرية إلى أسواقها المزدحمة بالباعة والشارين ولما أخذ منهما التعب مأخذه وقرصهما الجوع جلسا يأكلان خبزا وأقراصا شهية ساخنة من مأكول ملقى في الزيت اشتراه الولد محمود وراح سعيد يلوكه مستطعما وهو يردد في عقله باستمتاع اسمه العجيب: "فلافل". أكل الولدان معا حتى شبعا وتعاهدا على الصداقة. وكان قلب سعيد قد تعلق بالولد

محمود كأنه يعرفه طوال عمره وليس منـذ يـومين عنـدما رست السفينة في ميناء الإسكندرية، وتمنى لو طال به المقام في المدينة.

ولكن سعيد وقد رحلت السفينة لم يكن مبتهجا لفكرة بقائه في الإسكندرية. كان خائفًا إلى حد الفزع فلا مكان يأويه ولا عمل يأكل من منتوجه وليس أمامه سـوى الانتظـار للغـد ليبحث عن الولد محمود ليساعده. وماذا إن لم يجده؟ غلبـه النعاس قبل أن يجد إجابة عن سؤاله واستغرق في النوم حتى الصباح.

كانت الشمس على وشك الغروب عندما ظهـر أخيـرا الولد محمود، وكاد سعيد ينفجر باكيا وهو يركض في اتجاهه ويحكي له ما ألم به.

أخذه محمود إلى بيته وقضى ليلتـه بـين أهلـه الـذين أطعموه وسألوه عن أهله وبلاده وقال له أبو محمـود وهـو يربت على كتفه: "يقولون إن السفن الإنجليزية تقتـرب مـن شواطئنا وتقصد بنا شرا وقد يكون قبطـان سـفينتك عجـل بالرحيل حين علم بالأمر.. لا تخف ولا تحمل هما أنت فـي

بيتك وبين أهلك وغدا آخذك مع الولد محمود لتعمـل معنـا حمالاً بمحطة القطارات، والخيرة فيما اختاره ا ".

قضى سعيد ثلاثة أيام مع الولد محمود كادت تنسيه مـا أصابه.. في النهار ينهمك فـي حمـل حقائـب المسـافرين وأمتعتهم وفي المساء يأخذه الولد محمود للتنزه في المدينـة. يتحدثان ويضحكان ويأكلان الترمس وحب العزيز ويمـران من تحت نافذة البنت التي أسر له الولد محمود بحبـه لهـا: "وجهها كالقمر.. وابتسامتها، آن لو رأيت ابتسامتها يا سعيد!" يمران أمام البيت ويختلسان النظر إلى النافذة ولكن الحظ لـم يحالفهما.

بدا لسعيد أن ا قد عوضه خيرا فلم يعد يفكـر لا فـي السفينة التي تركته ولا في أمه التي تنتظره حتى كان اليـوم الرابع الذي فاجأه بالدوي المزلزل وسرى الخبر في المحطة أن المراكب الإنجليزية تقصف الطوابي ثم تتابع القصف من جهة البحر عاليا ومتصلاً فبدأ الناس يهرولون إلـى بيـوتهم وهم يسبون الإنجليز ويدعون لعرابـي أن يكسـر شـوكتهم ويهزمهم شر هزيمة.

سأله الولد محمود:

– هل أنت خائف؟

– لا.

– إذن تعال معي.

– إلى أين؟

– إلى البحر لنعرف ما يجري.

كان سعيد يفضل العودة إلى البيت ولكنه لم يقل لصاحبه فماذا لو ظنه خائفًا؟!

توجها إلى الشاطئ وكـان خلـق كثيـرون يركضـون بالاتجاه المعاكس ويقولون إن مراكب الإنجليز تضرب فـي كل الاتجاهات، على العجمي والمكس وقايد باي والسلسـلة وباب شرق وشاهدا بنفسيهما مقذوفات النيران تنطلـق مـن البحر مصوبة إلى الطوابي.

– ولكن لماذا يضرب الإنجليز مصر يا محمود؟

– لأنهم أولاد كلب!

– ولكن لماذا؟

لم يجب محمود عن سؤاله.. رآه سعيد يقفز في الهـواء ويحرك ذراعيه كالممسوس ويصيح:

– انظر يا سعيد، اسمع يا سعيد، الطوابي تجيب عليهم.. الإنجليز يضربون من البحر والطوابي ترد، الطوابي تضرب عليهم كما يضربون علينا.. عرابي جدع، عرابي جـدع يـا ناس..

وعلى غير توقع أخذ الولد محمود يركض ولم يفهم سعيد ما الذي دهى صاحبه.. كان يجري كالريح لا يلتفـت وراءه ولا يلوي على شيء.. راح سعيد يركض وراءه وبناديه حتى تقطعت أنفاسه دون أن يلحق به فتوقف لاهثًا ويائسا حتى رآه يغيب عن عينيه.

وقف ينتظر عودته، ولما طال انتظاره عبـر الطريـق وقرفص مستظلاً بمدخل بناية مواجهة للشاطئ. ولكن لمـاذا ركض الولد محمود هكذا فجأة؟ هل ذهب لمسـاعدة رجـال عرابي في قلعة قايد باي؟ ولماذا لم يقل له ليذهبا معا؟!

ظل سعيد مقرفصا في مكانه ينتظر وعيناه مثبتتان على الطريق.

كان القصف قد توقف وخيم هدوء مطبق على المكـان وبدت الطريق مهجورة، لا مارة، لا عربات تجرها الخيول، لا باعة ترمس أو عرقسوس أو ذرة مشوية.. ولما أظلمـت

الدنيا فكر سعيد في العودة إلى البيت: قد يكون الولد محمود سبقه إليه، وماذا إن لم يكن قد عاد – سيسأله أبوه وأمه عنه فماذا يقول لهم؟! ثم إن الولد محمود قد يـأتي هنـا للبحـث عنه.. أن لم يجده سيظنه جبن وتركه وذهب.

قرر سعيد البقاء في مكانه حتى يعود الولد محمود ولمـا طال انتظاره خشي أن يغلبه النوم فقام واقفًا وظـل يـروح ويجيء وعيناه مثبتتان على الشارع تطالبان بوجه صـاحبه وعينيه الضـاحكتين ولفتتـه الأليفـة، يسـتطلع صـورته ويستحضرها لتهل ويحدق في الطريق فلا يجـد إلا العتمـة الموحشة.. حتى طلع عليه الصباح. ثم تجدد القصف وتتالت المقذوفات تصم الآذان "ما الذي حدث الآن؟" تسـاءل سـعيد وقد اجتاحه خوف عارم وبدأ يكرر لنفسه بصوت عال: "لابد من البحث عن الولد محمود، لابد من البحث عنه" ثـم أخـذ يركض في نفس الاتجاه.

عندما اقترب من القلعة شاهد عساكر كثيرين يغادرونها. كان بعضهم مضمد الرأس أو مجبور الساعد وبعضهم يحمل نقالات يرقد عليها الجرحى. البعض يهرول والبعض يمشـي

بخطى وئيدة ووجوه الجميع شاحبة وشعثاء. راح يسألهم عن الولد محمود فنصحوه بالابتعاد عن المكان.

– لقد دمرت المدافع وتهدمت الطوابي ورفعنا الأعـلام البيضاء والإنجليز قادمون.

– والولد محمود؟

لم يجد من يجيبه على سؤاله ولكنه لم ييـأس وواصـل الصعود حتى اعترض طريقه رجل مهيب له شارب أبـيض كث، يلبس زيا عسكريا ويبدو من كبار الضباط:

– إلى أين يا ولد؟

– أبحث عن الولد محمود.

– أخوك؟

– نعم أخي.

– هل هو جندي؟

– لا أنه حمال في محطة قطـارات الإسـكندرية وقـد ركض في هذا الاتجاه بالأمس ساعة القصف وهو يصيح أن عرابي جدع:

- ما عمره وكيف يبدو؟

- إنه في الخامسة عشرة، يكبرني بعام ولكنه أنحف مني وأقصر.. كان يلبس جلبابا أزرق وطاقية بيضاء. هل رأيته؟

- عد يا ابني والديك فليعوضهما ا ويعوضنا.

- هل رأيته؟

ولما لم يجبه الضابط ركض سعيد قاصدا المدينة. "قـد يكون في المحطة يحمل أمتعة المسافرين.. وربما عاد لأمه.. وربما يقف تحت نافذة البنت التي يحبها.. لابد أن أجده".

كان يجري محموما والقصف يرج المدينة فضاءها إلـى أن وجد نفسه وسط حشد من البشر يهرولون فـي صـخب. كانت الطرق مكتظة بالرجال والنساء والأطفـال. الرجـال يسبون الإنجليز ويدعون عليهم بالخراب والنسـاء يولـولن والأطفال يبكون والجميع يحملـون، صـغارا أو أمتعـة أو حصرا أو سلة أو قفصا به بعض الدجاجات.

مشى سعيد معهم إلى حيث لا يدري وقد استحال المشي في اتجاه مغاير ولما طال الطريق سأل سعيد رجـلاً مسـنًا يسحب نعجة:

– أين نحن الآن يا عم؟

– بالقرب من ترعة المحمودية يا بني.

– هل نبعد كثيرا عن المحطة؟

– أية محطة؟

– محطة القطارات.

– نحن خارج الإسكندرية يا ابني.. لقد هـدم الإنجليـز الطوابي وأصابوا المحطة والبيوت المجاورة ومات الكثيرون والإنجليز يواصلون الضرب ليهدموا المدينـة بالكامـل. ا يخرب بيوتهم، ا ينتقم منهم. ا ....

– وعرابي يا عم؟

– عرابي؟

لم يكرر سعيد السؤال. شق طريقه بصعوبة وسط الحشد الغفير ومشى في سكة جانبية وقد عقد العزم على العودة إلى الإسكندرية "لابد أن أبحث عن الولد محمود.. لابد أن أجده".

ظل سائرا بين الحقول حتى دار رأسه وزاغـت عينـاه فانتحى جانبا من الطريق ونام.

في الصباح واصل رحلته في الطريق التـي بـدت لـه طويلة جدا كلما أيقن أنه اقترب من الإسكندرية وجـد نفسـه محاطًا بالجديد من الحقول.

كانت الشمس على وشك المغيب عندما التقى رجلاً يجر جاموسة وبغلة. قبل أن يسأله سعيد عن الطريق بادره الرجل بالسلام وسأله:

– إلى أين يا ولد؟

– إلى الإسكندرية.

– ولماذا إلى الإسكندرية يا ولد والإنجليز يضـربونها. هل تريد الدفاع عنها؟

– أبحث عن صاحبي، لابد أن أعود إلـى الإسـكندرية لأجد الولد محمود.

– تعالى يا ولد شاركني هذه اللقمة واسمعني حكايتك.

افترش سعيد الأرض مع الرجل الذي وضـع أمامهـا رغيفي خبز وقطعة جبن ورأسين من البصل. جلسا يـأكلان وقص عليه سعيد ما حدث.

– هل تظن أن مكروها أصاب الولد محمود يا عم أبـو إبراهيم؟

– تحمل وكن رجلاً واسمعني جيدا.. لقد تركت أولادي في القرية لألحق بجيش عرابي.. سأرسلك إليهم، قل لهم أنك التقيت بي وأنني أريدك أن تقيم معهم حتى أعود من الحرب.

قام الرجل وأتى بحصيرة من على ظهر بغلته وفردها:

- الآن ننام وفي الصباح أصف لك الطريق إلى القرية.

دق سعيد الباب ففتحت له أم إبراهيم وقـد بـدا عليهـا اضطراب وهي تقول بصوت خائف:

- بسم ا الرحمن الرحيم، من أنت يا ولد؟

- أنا سعيد جئت من طرف أبو إبراهيم.. التقيت به وهو في طريقه للحاق بجيش عرابي.

- أهلا وسهلا، تفضل.

ما إن دخل سعيد حتى التـف حولـه الأولاد وعجـوز صغيرة الحجم متلهفين على سماع ما عنده ثـم أخـذ الأولاد يمطرونه بالأسئلة عـن الإسـكندرية وعرابـي ومراكـب الإنجليز. وقالت أم إبراهيم لأولادها وهي تضع طعاما أمـام سعيد: "أتركوه ليأكل ويستريح والصباح ربـاح". ورغـم أن سعيد لم يكن قد أكل شيئًا طوال اليوم ولا مس الزوادة التـي أعطاها له أبو إبراهيم في منديل معقود إلا أنه لم يكن جائعا بل كان يشعر بثقل في رأسه وألم محرق في عينيه ووهن في مفاصله..

وضع رأسه على الحصيرة واستغرق في النوم وعلقـت أم إبراهيم:

"مسكين هده التعب". ولكنها اكتشفت أثناء الليل أن سعيد يهذي فوضعت يدها على جبينه فإذا به ساخنًا كالنار.

خمسة أيام قضاها سعيد وهو محمـوم رعتـه فيهـا أم إبراهيم بفزع ولهفة كأنه واحد من أولادها.. ولم تكن تعرف إن كان عطفها الشديد عليه لأنه "غريب يا عين أمه" أم لذلك الشبه الذي استوقفها منذ فتحت له الباب بينه وبين المرحـوم إبراهيم، نفس السن والطول والبنية: الأولاد أيضا لاحظـوا ذلك وأشاروا إليه أمام زوجة جدهم التي قالت: "قـد يكـون عفريتًا احذروا منه".. فضحكوا..

أحب الأولاد سعيد كما أحبته أم إبراهيم وتلهفـوا علـى قيامه معافيا كما تلهفت، حتى البنت لوزة بنت العشرة شهور كانت تحبو إلى الحصيرة التي يرقد عليهـا ولا يحلـو لهـا الجلوس إلا بجواره.

وكانت الست سجر هي الوحيدة بين أهل الدار التي لـم ترحب به وأصرت على شكها في أمره: "العفاريت وحـدها هي التي لا أصل لها ولا يعرف لها لا أب ولا أم ولا بلـد..

وهذه الجزيرة التي يقول أنه جاء منها لم يسمع بهـا أحـد.. سمعنا عن مصر والحجاز والسويس والسودان وعن غيرهـا لم نسمع!".

– والإسكندرية يا ستي سجر؟!

– الإسكندرية؟! تقول العجوز باستنكار:

– لم نسمع عنها وحتى اسمها غريب! فيتخابـث أحـد الصغار ويغمز لإخوته وهو يقول:

– يمكن بلد عفاريت يا ستي.

– ا أعلم!

فيضحك الأولاد وتقول الست سنجر بغضب:

– عيال جهال وقليلوا التربية!

ويوم تعافى سعيد وراحت السخونة من جسمه ذبحت له أم إبراهيم دجاجة وأوصت الأولاد أن يتركوها لـه وحـده: "الولد ضعيف وجسمه مهزوم، وبإذن واحد أحد عندما يرجع أبوكم بالسلام أذبح لكم ثلاث دجاجات". وتابع الأولاد أمهـم هي تذبح الدجاجة وتنتف ريشها وتغسلها وتسلقها ورأوا سعيد وهو يشرب مرقها ويأكل لحمها الطيب ولكن واحدا منهم لم يطلب مشاركته.

أقام سعيد مع أم إبراهيم كأنه واحد من أطفالها وكـانوا ستة، أربعة أولاد أكبرهم يصغره بسـنة، وبنتـان واحـدة مازالت تتعثر في الكلام والثانية لم تتعلم المشي بعد.. وكـان الأولاد يذهبون كل صباح إلى الكُتاب ثم يلحقون بأعمالهم في الحقل بعد الظهر. وكانت دهشتهم كبيرة عنـدما عرفـوا أن سعيد لم يمسك بفأس في حياته وزاد استغرابهم عندما أخبرهم أن العبيد هم الذين يزرعون الأرض في بلاده:

– وبماذا يشتغل أبوك؟

– أبي مات بعد ولادتي بشهور.

– ولكن ماذا كان يعمل قبل أن يموت؟

– كان غواصا.

– ما معنى غواص؟

– يغوص في البحر ويجمع المحار.

– وما هو المحار؟

– قواقع مغلقة عندما نفتحها نجد بداخلها كرات صغيرة رطبة ناصعة البياض هذه الكرات هي اللؤلؤ وبعضه ثمـين جدا، أثمن من الذهب.

– كان أبوك من الأغنياء إذن؟

- لم يكن أبي يملك اللؤلؤ.
- كيف، ألا يصيده بنفسه؟
- كان يغوص مع غيره من الغواصين إلى قاع البحـر. كل غواص يحمل سكينًا ويربط خصره بحبل يمسك بطرفـه الآخر شخص يبقى في المركب. الغواص يقفز إلـى المـاء ويغوص فيه والممسك بالحبل يرخيه وعندما ينتهي الغـوص يشده فيصعد الغواص إلى المركب وقد ملأ كيسـه بالمحـار الذي يأخذه ريس المركب ويفرزه ويعطيه للسلطان الذي يدفع لريس المركب والغواصين أجر يومهم.
- ولا يعطيهم أي لؤلؤ؟
- لا..
- ولا لؤلؤة واحدة!
- لا..
- غريب!
- وكيف يتنفس الغواص وهو تحت الماء؟
- يكتم أنفاسه طوال فترة الغوص.
- وإن لم يستطع؟
- يختنق ويغرق وهذا ما حدث لأبي.

– هذا عمل صعب جدا، الفلاحة أسهل!

ولكن سعيد لم يجد الفلاحة أسهل. أن تنزل البحر وتكتم أنفاسك لدقائق ثم تخرج إلى المركب أسهل من أن تضـرب الأرض بفأسك أياما وأياما، تحرثها وترمـي فيهـا البـذور وترويها وتتعهدها شهورا طويلة ثم تعـود تعمـل لأسـابيع متتالية في حصاد غلتها.

ومع ذلك فقد تعلم سعيد أن يمسك بالفأس وأن يعمل مع الأولاد في الحقل بعد عودتهم من الكُتاب.. وفي غيابهم كان يستذكر الأبجدية التي علموها له، وينقل الماء العـذب مـن الطرنبة التي بالطرف الآخر من القرية ويذهب إلى السـوق ليبيع البيض الذي تبيضه دجاجـات أم إبـراهيم، ويلاعـب الصغيرتين. ألف القرية والبيت وكل من فيه باستثناء "سـت سجر" التي كانت دائمة التـذمر لأن "أبـو إبـراهيم" أخـذ الجاموسة وحرمهم من حليبها والبغلة فاضطرها للذهاب إلى الحقل مشيا وتظل تكرر: "يا خايبة يا أم إبراهيم ضحك عليك زوجك وقال آخذ الجاموسة والبغلة لعرابي وذهـب يتـزوج عليك في بلد ثانية!".

كان اليوم يمر على سعيد بهدوء وألفة ويسـر وينتهـي دوما بتلك الجلسة المسائلة مع الأولاد يتسامرون ويضحكون، يحكون له عن الشيخ الضرير الذي يعلمهم في الكُتاب ومـا دار من نوادر وطرائف وهو يحدثهم عـن البحـر والسـفن الكبيرة التي تشق طريقها وسط أمواج عالية كالجبال والحوت الذي يهدد الصيادين أو يقذف به البحر ميتًـا بـالقرب مـن الشواطئ فيسحبونه ويشقون بطنه ويخرجون منـه العنبـر وينتهي السمر كما في كل ليلة بحكاية من حكايـات عمـار يعينها الأولاد بالاسم فيحكيها لهم سعيد.

"حكاية الأسد والثعلب"، "حكاية الضفدع الـذي تـزوج باثنتين" "حكاية الرجل الذي أشفق على حية يتعقبهـا فـلاح فأجارها في بطنه" كان الأولاد يعرفون كل حكايـات عمـار كما يعرفون عمار نفسه وآمنة وحافظة كأنهم قد عاشوا معهم كما عاش سعيد.

يتحدثون ويضحكون حتى يغلبهم النوم.. ولكن سعيد في النوم لم يكن يثرثر أو يضحك. كان يرى الولد محمود وهـو يجري مبتعدا فينادي عليه، ينادي ويبكي ويستيقظ أحيانًا وفي عينيه آثار دموع. كان يتمنى أن يرى في الحلم الولد محمود

مقبلاً عليه بسمرته الصافية وعينيـه اللامعتـين وملامحـه الضاحكة وجسده النحيل وجلبابه الأزرق وصـوته ومشـيته ولفتته، واضحا وكاملاً. يقول سعيد لنفسه إن جـاءني هـذا الحلم يكون الولد محمود بخير وعافية، ومرت الأيام وسـعيد ينتظر أن تأتيه هذه الرؤيا في المنام.

***

علت الصرخة في الفضاء فجأة ثم سـكنت.. لـم تكـن صرخة استغاثة ولا فزع بل انفلات صوت ملوع مكـدود أو شيء آخر لم يحط به سعيد.. أصاخ السمع.. لم يكن هناك إلا الصمت حاضرا مسموعا وملموسا يجلل الصرخة ويؤكدها. خرج ليستطلع الأمر.

سار محدقًا في الأبواب باحثًا عن البيت المنكوب. بـدا الزقاق مهجورا وساكنًا ولكـن الصـوت الآن كـان يأتيـه همهمات مكتومة كعويل مخنوق أو حشـرجات امـرأة فـي عذاب المخاض.. يمشي إليه ثم يظنه خلفه فيستدير راجعـا فإذا بالصوت يأتيه من جهة ثالثة. هل هو عفريت من تلـك العفاريت الكثيرة التي تسكن خيالات ست سجر أم أن حزنًـا غريبا يسري كالعدوى في البيوت؟

عند الرجال الخبر الأكيد.. مشى باتجاه الحقول.. كـان الهواء مزموما والشمس تقدح نارها علـى تـراب الطريـق يشعر بلسعته على قدميه الحافيتين. رفع طرف جلبابه وجفف العرق عن وجهه وواصل السير.

انتصف النهار. تطلع إلى السماء كأنما ليتأكد أن الشمس قد توسطت قبتها، سيجد الرجال مجتمعين تحت الصفصـافة الشرقية يتناولون غداءهم ويسألهم: وماذا لو كانت الصـرخة من صنع خياله؟! والهمهمات؟! لن يسألهم، سـيجلس بيـنهم يأتنس بصحبتهم وحين يقومون للعمل سيحمل فأسا ويضرب معهم في الأرض يحرثهـا. سـتوبخه أم إبـراهيم لتركـه الصغيرتين وحدهما في البيت بلا رعاية، توقف مرة أخـرى ورفع طرف جلبابه ومسح وجه.

لم يجد أحدا من الرجال عند الصفصـافة الشـرقية، ولا قريبا منها دار بعينيه في الحقول فلم يـر إلا حمـارا سـائبا وجاموسة مقيدة في ساقية لا تدور. كانت الحقول المحروثـة مهجورة تماما إلا من طيور أبو قردان التـي حطـت هنـا وهناك على الأثلام المعزوقة.

ركض عائدا إلى القرية وكلما اقترب منها اتضحت الأصوات. لم تكن همهمات بل عويل يتصاعد ويشتد ثم رأى النساء وقد اعتلين أسطح الدور يلطمن خدودهن ويضربن صدورهن ويمزقن ثيابهن أو يمسكن بأطراف أغطية رءوسهن ويحركنها باليدين القابضتين في انتظام متشنج يروح ويأتي مع إيقاع البكائيات النادبة تقطعها بين حين وآخر ولولة حادة ومفاجئة لامرأة أو أخرى تتقافز كالفرخ المذبوح.

مشى سعيد من زقاق لزقاق وعيناه معلقتين بأسطح الدور وإفريزها الآدمي الناطق يجلله الأسود وعويل الحداد. توقف ليمسح البلل المالح الغزير الذي غطى وجهه وعينيه. كان حزن النساء يزلزل أحشاءه ولكنه ظل يمشي حتى قطع أزقة القرية كلها ثم وقف وقفة الحيران.

دفع بباب أحد الدور ودخل على رجال وصبية لا يعرفهم وجلس بينهم مثلهم صامتًا.

***

خسر عرابي الحرب فماذا لو ذهب أبو إبراهيم كما ذهب الولد محمود؟.

أرقه السؤال ليالي متعاقبة ورغم حرارة سـبتمبر كـان البرد ييبس جسده ويبقيه مستيقظًا حتى الصباح.

ولكن عم أبو إبراهيم لم يغب كالولد محمود. دفع البـاب بعصاته ذات مساء ودخل، فهلل الأولاد. وقالت أم إبـراهيم بابتسامة حيية: "لولا الملامة لزغردت".. وقالت ست سـجر: "أين البغلة والجاموسة يا أبو إبراهيم؟"..

وقال أحد الأولاد مذكرا أمه: "متى تـذبحين الفرخـات الثلاث؟" لم يرد أبو إبراهيم على زوجة أبيـه وزجـر ابنـه وتطلع إلى سعيد مترفقًا يسأله عن حاله ثم طلب من زوجتـه أن تسخن له ماء ليغتسل.. تحمم واستلقى علـى الحصـيرة ونام.

شكت أم إبراهيم همها لسعيد وهما عائدين مـن سـوق الخميس.

أنت لم تعرف عمك أبو إبراهيم قبل سفره. كان بشـوش الوجه وطويل الباب، رجل هادئ ونادي ومثل الفل، يضحك مع الأولاد ويسامرهم ولكنه الآن كما ترى لا يفتح فمـه إلا لزجرهم أو تهديدهم بالضرب أو يبقى سـاكتًا كأنـه نسـى الكلام، ست سجر تقول: "عرابي عمل له عمل" فتضـحكون

ولكني أحيانًا أقول لنفسي يمكـن كلامهـا صـحيح أو أنـه مريض.

قد يكون مريضا يا أم إبراهيم.. ألم أمرض خمسة أيـام بعد رجوعي من الإسكندرية؟!

مرضت وشفيت لأنك كنت تسمع كلامي أما هـو فـلا يسمع وأكله أقل مما تأكله البنت لوزة فكيف يسترجع عافيته وهو لا يأكل؟!

حاول سعيد أن يطمئنها فقـال لهـا أن عرابـي خسـر الحرب. وأن أبو إبراهيم حزين لذلك وحزين أيضا لأنه مـن المؤكد أن له زملاء ماتوا في الحرب. و "لكن حتى الحـزن يخف مع الوقت" وحدثها سعيد لأول مرة عن الولد محمـود، كيف ذهب وكيف بحث عنه ولم يجده فصـارت أم إبـراهيم تبكي وتمسح دموعها في كمها.

وكان سعيد يعرف أن كل ما قالته أم إبراهيم صحيحا فقد كان يرى كل يوم كيف يضيق أبو إبراهيم بأولاده ويزجرهم ويضربهم، صحيح أنه كان يترفق به ويميـزه عـنهم فـي المعاملة إلا أن وجوده في البيت أضفى على من فيه جهامـة

لم يعرفها سعيد في غيابه. حتى جلسات السـمر والضـحك المسائية توقفت لأنهم كانوا يخشونه.

مرة واحدة في شهور طويلة سمع سعيد أبـو إبـراهيم يضحك، يضحك من قلبه وبصوت عال. كان غائبا عن الدار وكان الأولاد يغنون، دخل عليهم فتوقفوا، سأل أحدهم:

ماذا كنت تغني يا ولد؟

- لم أكن أغني.

- بل كنت تغني ولقد سمعتك، ماذا كنت تغني؟

تلعثم الولد ثم اعترف:

يا سيمور يا وش القملة.

مين قالك تعمل دي العملة.

سأله أبوه وهو يبتسم:

- هل تعرف من هو سيمور؟

- إنجليزي طبعا!

ضحك أبو إبراهيم وضحك الأولاد لضحكه وتركـت أم إبراهيم ماجور العجين وانضمت إليهم وآثار العجـين علـى يديها وضحكت معهم.

وسأله الأولاد:

- يعني نغني يا با؟

- غنوا.

فغنى الأولاد وهم يدورون في صحن الدار:

يا سيمور يا وش القملة

مين قالك تعمل دي العملة

وعلت أصواتهم عما قبل وزادهم حماسا أن أباهم كـان يضحك، يضحك للمرة الأولى منذ شهور وعادت أم إبراهيم إلى ماجور العجين وهي تقول:

- خير اللهم اجعله خيرا.

***

قضى سعيد سنة في بيت أبو إبراهيم كأنه واحـد مـن أولاده ولكن في الشهر الأخير ألحت عليه أمه فأصبحت تأتيه في الأحلام واشتاق للبحر فكان يستحضره بخياله وزاد افتقاده لحافظ وعمار والجزيرة وأهلها فكان دائم التفكير فيهم.. فلما غلبه الشوق ودع أبو إبراهيم وأسرته وقصد السويس ليبحث عن سفينة تبحر جنوبا.

بكت أم إبراهيم ساعة الفراق وقالت: "كأنك ابن بطني يا سعيد".. وتعلقت بـه الصـغيرتان تريـدان الـذهاب معـه

واصطحبه أبو إبراهيم والأولاد حتى بداية السكة الموصـلة للسويس.. ودعهم وحمل السلة التي ملأتها لـه أم إبـراهيم بعيش خبزته خصيصا له، ومضى في طريقه.

(٤)

رجوعيات عمار

في الشهور الأخيرة كان عمار يكثر من التفكيـر فـي الماضي، في أمه وأبيه وإخوته الذين لم يعد يذكر لا أسماءهم ولا عددهم. كان يذكر أصواتًا مبهمة كأنها كلام أو همهمات أو أغان تترنم بها امرأة وهي تدير الرحى أو تدق في جرن خشبي، وفضاء يختلط فيه البرتقالي بالأخضر فهـل كانـت أوراق الموز في توهج الظهيرة أم ثوب أمه أم ثمرة مـانجو تناثر قشرها من حوله وهو يلتهمها؟ يمعن عمار التحديق فلا يرى إلا ضوءا تغيم فيه الوجوه وتظل تلح رغـم ذلـك لأن الموت يقترب وساعة اللقاء تحين فهل يضيع منهم في الآخرة كما ضاع في الدنيا فيجد نفسه في عالم الأمـوات وحيـدا لا يتعرف على ذويه؟

كان عمار في السبعين أو ربما في الثمانين، لـم يكـن يعرف ولكنه كان يعرف أنه في البدء كـان معهـم فحملتـه المركب مع آخرين فصار عبدا من عبيد سـلطان زنزبـار. يذكر يفاعته في مزارع القرنفل وكلمات سلطان زنزبار وهو

يقدمه إلى السلطان خالد: "هذا عبدي عمار خلقه ا جميـل الوجه قوي البنية سمهري العود، وثقفّه – وله في خلقه شئون – فهو سريع كالسهم ومثله صائب.. ضمه إلى جعبتك فهـو هديتي إليك".

حمله السلطان عائدا إلى الجزيرة في المركب. ولم يكن عمار يبكي كما في رحلته الأولى بل كان مزهـوا بكلمـات سلطان زنزبار وبقرار السلطان خالـد أن يجعلـه خادمـه الشخصي.

كم من الوقت انقضى؟ مات خالد وخلفه ابنه الأكبر علي الدين الذي قتله أخوه نعمان بعد ذلك واستولى علـى حكـم الجزيرة. وشاخ عمار ولم يعد يكلفه أحد بالمهام الكثيرة التي كان يكلف بها من قبل. أصبح عبدا متقاعدا يتكئ على عصاه لكي يمشي خطوات معدودة أو يجلس قرب سـاحة المطـبخ آملا في أن يبادله أحد الحديث. يتمنى أن يستطيع الذهاب إلى المزارع حيث جموع العبيد فيلتقي بهم ويمضي الوقت فـي صحبتهم ويلاعب صغارهم ويثرثر مع شيوخهم ولكن ساقيه لم تعودا قادرتين على حمله لينزل التلة ويقطع الجزيرة ثـم يعود يقطعها ليصعد.

كانوا يحسدونه لأنه الخادم الشخصـي للسـلطان فـلا يضطره ذلك للعمل الشاق في الحقول منذ طلوع الشمس حتى غيابها ولا يعرضه لسياط الأمراء الذين يحكمون المـزارع ويديرون شئونها. هو أيضا كان يظن نفسه محظوظًا ولكنـه الآن يتساءل إن لم يكونوا هم الأفضل حالاً: يعيشون معـا، يتشاركون الحياة، يتزوجون ويتناسـلون ويملئـون الأرض حولهم بذريتهم، وهو باق كشجرة وحيدة في أرض قفر عندما يقطعها الموت لا تجد من يخلفها. لو كان له ولـد أو بنـت، زوجة وأحفاد لانتظر مجيئهم بعد الموت، ومهما طـال بـه الانتظار كانوا سيأتون فلا يكون وحده في الممات كما فـي الحياة.

"لابد أن أتذكر وجه أمي.. لابد".. يكرر عمـار لنفسـه وهو يحدق في الماضي فلا تأتيه إلا أصـوات مبهمـة فـي فضاء يختلط أخضره بالبرتقالي.

رأته آمنة وهي تنقل أجولة الطحين واستغربت جلوسـه في المكان في هذا الوقت. كان مسـندا رأسـه إلـى حجـر مغمضا عينيه، نادت عليه:

- عمار

فتح عينيه:

- آمنة؟

- صباح الخير.. ما الذي أتى بك في هذا الوقت المبكر؟

- كان الحر شديدا في الليل فلم أتمكن من النوم، هل عاد سعيد؟

- لم يعد مع أن سفنا كثيرة تصل الميناء هذه الأيام وكل يوم أذهب إلى هناك لأسأل.

- سيعود لك سعيد يا آمنة، إن شاء ا سيعود، لقد رأيت ذلك في المنام.

ولم يكن عمار قد رأى شيئًا ولكنه أراد أن يطمئنها.

تركت آمنة جوال الطحين وجلست بجواره:

- ماذا رأيت ومتى ولم لم تحك لي؟

- الآن وأنا جالس هنا غفوت فرأيت سعيد، هو بعينـه، وهل أخطئه؟!

كان يصعد التلة وينادي عليك.

- لعله في ضيق وينادي؟

- كان يصعد التلة عائدا يحمل لك هدية من بلد بعيـد، وكان وجهه مبتسما وقد أصبح له شارب كالرجال.

- أصبح له شارب كالرجال. هل رأيت ذلك يا عمار؟!

- وا   رأيته يا آمنة!

ولم يستغرب عمار أنه أقسم فقد كان يشعر أنه صـادق فيما يقول رغم أنه لم يكن قد رأى سعيد في الحلم.

سألها راغبا في إطالة الحديث بينهما:

- قلت إن سفنا كثيرة تأتي إلى الميناء، أي سفن؟

- سفن الإنجليز.. إنهم ينشئون محطة شـرق الجزيـرة وقد بدأوا في بنائها.

- محطة؟

- محطة لعسكرهم.

- ولماذا يعسكر الإنجليز عندنا يا آمنة؟

- لا أعرف يا عمار!

حيته وقامت لتنقل أجولة الطحين وتبدأ عملهـا اليـومي وظل في مكانه آسفًا لذهابها.

آمنة تشبه أمها ولو تاه عقله عن الزمن لقـال إن مـن كانت تجلس بجواره الآن هي مليحة وليست ابنتهـا، مليحـة الجميلة ذات الجديلتين وطابع الحسـن والوجـه الصـبوح.. يمشي وراءها فتقول: "ارجع يا عمار" فيجيبها: "كيف أرجـع

يا مليحة؟!" فتضحك وتقول: "ارجع!" لكنه لم يرجع حتى بعد أن تزوجت وأنجبت، حتى بعد أن ماتت، فكيف يرجع وإلـى أين؟! "هل تقبلين الزواج مني يا مليحة؟" وهل في الجزيـرة من يفضلك يا عمار؟". ذهب إلى السلطان وطلـب منـه أن يعتقه ليتزوجها: "اعتقني وسأبقى لك عبدا مدى الحياة".. لـو كان والده السلطان خالد على قيد الحياة لوافق فقد كان أقـل قسوة وهذا السلطان حمله على ظهره وهو صبي وركض به من القلعة إلى الميناء ومن الميناء إلى القلعة والولـد يحـيط عنقه ساقيه ويهزه بهما كأنه يركب حصانًا، يضحك فتـردد ضحكاته المجلجلة في التلة كلها. حمله على ظهـره طفـلاً وقص عليه الحكايات وحممه بيديه وسكب ماء الورد علـى جسده قبل أن يدخل بأول امرأة في حياته.. كلب جحود ينكح ما لا حصر له من النساء ويملك الجزيرة ومن عليها ويضن عليه بامرأة واحدة، مليحة التي ملكت قلبه وحرمه نعمان منها حين رفض أن يعتقه.

وعندما مات عبد ا زوج آمنة وتركها صـبية وحيـدة وسعيد رضيعا بين ذراعيها راودته فكرة الزواج منها. طلب من صاحبه جعفر عبد القاضي أن يسأل سيده أن كان يجوز

للرجل أن يتزوج ابنة زوجته فنبهه جعفر إلى أنه لم يتـزوج مليحة وأن آمنة ليست ابنة زوجته "آمنة تجوز لك يا عمار.. ولكن هل يعتقك السلطان؟" لم يكـن يفكـر أن يطلـب مـن السلطان أن يعتقه.. لو قبلت آمنة سيأخذها مع سـعيد علـى مركب صيد ويهرب بها من الجزيرة وسلطانها الجحود الذي نسى أنه كان يحمله على كتفيه ويركض به كالحصان ولكنه لم يهرب ولم يعرض على آمنة الزواج، رأى في الحلم مليحة متجهمة الوجه فعرف أنها لا تريد وأنه لا يجوز للرجـل أن يتزوج من ابنة زوجته.

رأى آمنة تخرج من ساحة المطبخ عائدة إلى بيتها:

- آمنة..
- أما زلت جالسا هنا يا عمار؟
- استعذبت النسيم فبقيت.
- ولم تتناول شيئًا منذ الصباح؟
- لست جائعا.

جلست بجواره وفتحت منديلها وأعطته أحد الرغيفين:

- لابد أن تأكل، ستزداد وهنا أن بقيت بلا طعام.
- عندما يعود سعيد يا آمنة وزوجيه.

- أزوجه؟!

- هل تريدين أن يبقى مثلي مقطوعا بـلا زوجـة ولا أولاد؟

- ولكن سعيد صغير يا عمار.

- ليس صغيرا لقد رأيته في الحلم وقد أخضر شاربه.

- أحكي لي عن الحلم يا عمار.

- قلت لك ما رأيت.

- قل أكثر.

- كان يحمل لك هدية.

- هل رأيتها؟

- لم أتحقق، كان يقبض عليها بيده، هل تذهبين لزيـارة قبر مليحة يا آمنة؟

- في العام الماضي ذهبت.

- اذهبي لزيارتها يا آمنة.

- سأذهب يا عمار.

عاونته على القيام واصطحبته في جزء من الطريق ثـم استدارات لتنزل التلة ومضى عمار قاصدا حجرته بقبو القلعة حيث يقيم مع خدم السلطان، وكان يفكر وهو يمشـي بـبطء

متكئًا على عصاه أن الأموات يحتاجوننا كما نحتاجهم أن لـم نوافهم بالسؤال يثقلهم الحزن وتـركبهم الوحشـة وهـو لا يستطيع زيارة قبر أمه وأبيه إذ لا يعرف بأي أرض دفنـا.. فهل يا ترى يذهب إخوته إليهما ويسألون عنهما فيبددون شيئًا من وحشتهما أم أن مراكب أخرى حملتهم ليصيروا عبيدا في البلاد مقطعين كأغصان الشجر؟

(٥)

الحمامة المطوقة

سمعت من يهمس باسمها ولما حدقت في الظـلام جهـة الصوت تعرفت على ابن عمها حافظ واستغربت أن ينـادي عليها همسا ولا يقترب حيث كانت تجلـس تضـفر جريـد النخيل في ضوء القمر، قامت إليه.

- ماذا دهاك يا حافظ؟! تقف متحجرا كالأصنام وتفـح كالأفاعي.. تـ.. و.. دد.

قلدته ساخرة ولكنه لم يضحك.

- تودد هل تحفظين سرا؟

- أي سر؟

- أقسمي أن تحفيظه فأقول لك.

- سأحفظه.

مد حافظ يده إلى جيب جلبابه وأخرج ورقة مطوية:

- أريدك أن توصلي هذه الرسالة إلـى شـخص فـي المزارع وتحفظي سرها فلا تخبري أحدا بأمرها.

- من كتب الرسالة؟

لم يكن حافظ يقرأ ولا يكتب.

- شخص لا تعرفينه.

- وما الذي فيها؟

- لا أعرف!

ضحكت مستنكرة..

- يا تودد هذه رسالة مهمة وليس في نساء الحي من هي أجدر منك بنقلها.

سرت للإطراء.

- هل تمزح؟

- لا أمزح.

- إذن قل لي المكتوب في الرسالة فأحملها.

- لا أعرف.

- ولماذا لا تحملها أنت؟!

- لأن ذهابي إلى امرأة من نساء العبيد في المزارع يثير الشكوك.

- أي امرأة؟

- التي تحملين لها الرسالة.

- وهل الرسالة مكتوبة لامرأة؟!

علا صوتها وهي تسأل فبدا أنها تحتج وتستنكر.

- وهل تعرف هذه المرأة القراءة؟

- لا أعرف.

حاكته تودد بنفاد صبر:

- "لا أعرف!" لن أحمل الرسالة.. أبحث لك عن بغل يحملها! تركته وعادت إلى مكانها وجلست تضفر جريد النخيل بانهماك كأنه لا يقف على بعد أمتار في انتظار استكمال الحديث.

سمعت خطواته تقترب. لم ترفع عينيها. جلس بجوارها صامتًا.

- ما اسم المرأة؟

أخبرها.

- هل يعشقها صاحبك؟

ظل صامتًا.

- هل فقدت النطق؟!

- لو قلت لك لا أعرف ستغضبين. لم يقل لي صاحبي أنه يعشقها. ربما يعشقها، ربما لا يعرفها، ربما سمع عن مهارتها في خلط الأعشاب الطبية فأراد وصفة له أو لأمه أو

أبيه، وقد لا تكون الرسالة موجهة إليها بل لابنها أو أخيها أو زوجها. لا أعرف!

- هات الرسالة.

ناولها الورقة المطوية ووصف لها الطريق ونبهها إلـى ضرورة الحذر ثم قال لها وهو يضحك:

- عندما أذهب إلى الهند سأحضر لك فيلاً أبيض مكافأة لك!

ضحكت تودد وهي تراه يبتعد. كان حـافظ يكـرر مـا درجت هي على قوله له وهو طفل صغير. كان في الرابعـة أو الخامسة وكانت قد تجاوزت العاشرة تقول له: "لو حسنت سلوكك وسمعت الكلام أحضر لك فيلاً أبيض مـن الهنـد".. فيسألها: "وكيف تذهبين للهند يا تودد؟" فتجيبه بثقة "سأذهب إلى الهند والسند وما أبعد منهما. وسترى بعينيك حين أعـود من السفر محملة بالعجائب". كانت تحلم بالسفر إلـى الـبلاد البعيدة ولماذا لا تحلم وباب كوخها يفتح على مـوج البحـر العالي والسفن تأتي وتروح والملاحون من حولهـا يملئـون الجزيرة بما رأوه في أسفارهم ولديهم من الحكايات ما يصبغ الأيام والليالي بألوان أبهى من ألوان الشروق.

كانت تحلم إلى أن كان اليوم الذي عزمت فيه أمرها فاختبأت خلف شجرة وقصت شعرها ولبست جلبابا لأخيها ثم ذهبت إلى الميناء وقابلت ربان سفينة مدعية أنها صبي يبحث عن عمل. قال لها الربان: "أنت صغير يا ولد عد بعد عامين أعطيك عملاً" ولكن قبل مرور العامين حدث ما لم يكن في الحسبان نهض ثدياها واستدار ردفاها ولم يعد بإمكان أي بحار وإن كان كليل البصر أن يخطئ كونها صبية.

آمنة تستغرب حب الرجال للبحر وهي تستغرب استغراب آمنة فما الذي يحبه الإنسان في جزيرة تطبق عليها شواطئها كالطوق والبحر من وراء الشواطئ يموج ويمتد إلى بلاد الدنيا الواسعة؟!

تطلعت إلى الورقة المطوية بين يديها ثم خبأتها في صدرها وقامت. دخلت الكوخ على أطراف أصابعها وتلمست طريقها في الظلام بين أهلها النائمين وأتت بالصندوق وعادت إلى مكانها في ضوء القمر.

فتحت الصندوق وأخرجت منه الكتاب، تحسست غلافه بكفها ثم فتحته وراحت تمعن النظر في سلاسل الحروف المتشابكة في انتظام وانسياب. أطالت التحديق وكأنما

ستكشف لها السطور في نهايـة المطـاف عـن جوهرهـا المكنون.

كانت أمها تتردد على بيت القاضي، يضـعون أمامهـا أكواما من الملابس، ملابس القاضي وابن القاضي وزوجـة القاضي وبنات القاضي، تنحني أمها على طسـت الغسـيل تفرك الملابس وتدعكها حتى يصير ماء الطست بلون تراب السكة، وتجلس تودد بالقرب منها تثرثر حينًا وتحلـم حينًـا وتشكو الضجر حينًا وتنتظر أن تفرغ أمها لتحمل الملابـس مشطوفة ومعصورة وتنشرها على الحبال المشدودة في ساحة خلفية البيت.

لمعت الفكرة في رأسها يوم رأت زوجة القاضي وبناتها يخرجن من البيت، انسلت تودد من مكانها وذهبت للفرجـة. دلفت إلى قاعة فسيحة مغطاة بأبسطة ناعمة كالحرير أحست بملمسها قدماها الحافيتان، أبسطة جميلـة تتعـرج ألوانهـا الزاهية وتلتف في نقوش غريبة. تطلعت إلى الأبسـطة ثـم تطلعت إلى السقف. لم يكن كسقف الأكـواخ يعلـو الـرأس بشبرين أو ثلاث بل كان شاهقًا لا تطوله يد عمـلاق يقـف على كتف عملاق مثله.. حتى الثريـا المشـدودة بسلاسـل

حديدية والتي كانت تتدلى من السقف كانت أيضا عالية جـدا لا تطالها اليد. تطلعت تودد إلى الأبسطة ثـم تطلعـت إلـى السقف ثم دارت بعينيها تستكشف الأرائك المغطاة بالوسـائد والزرابي، والخزائن الخشبية المطعمة بالصدف.

ثم سمعت الصوت الرخيم، لم يكن ما يقرأ قرآنًا ولكنـه كان يقرأ. مشت باتجاه الصوت وشاهدت عبر الباب الموارب القاضي يجلس متربعا على أريكة وبين يديه كتاب يقرأ منـه على ابنه. رأت جانبا من جدران القاعة تغطيها أرفف تحمل كتبا كثيرة مغلفة بأغلفة جلدية سـوداء وخضـراء وزرقـاء وحمراء كعوبها منقوشة بنقوش ذهبية آسرة. أخذتها القـراءة حتى نسيت أمها ووجه القاضي المجدور وعينه العوراء التي تخيفها.

ووقفت تتنصت إلى أن سمعت نداء أمها فهرولت إليهـا حتى لا ينتبه القاضي إلى وجودها.

قضت اليوم كله تفكر حتى هداها عقلها إلى حيلة راحت تستعيدها طوال الليل حتى سمعت صياح الـديك فخرجـت متلصصة من الكوخ. وقفت وراء شجرة قريبـة مـن بيـت القاضي حين رأته يخرج لصلاة الفجر وتسللت إلـى الـدار

ودخلت إلى القاعة التي كان يجلس فيها في اليـوم السـابق. كان المكان معتما فلم يكن بإمكانها رؤية الكتب ولا تحسسها. اختبأت تحت الأريكة وراحت تنتظر.

غلبها النوم ولم تنتبه إلا على صـوت جاريـة تنظـف المكان. كتمت أنفاسها وواصلت الانتظار. أذن المؤذن لصلاة الظهر ومر وقت ثم سمعت خطوات القاضي تقترب وأحست بثقل جسمه وهو يجلس على الأريكة. ورغم الظلام الـدامس وبرودة الرخام وصعوبة وضعها المنبطح لم يكن يزعجهـا سوى ضربات قلبها المسموعة وخشيتها من أن تصـل إلـى أذني القاضي الذي كان يجلس فوق رأسها مباشرة.

حكى القاضي لابنه عن حمامة يقـال لهـا المطوقـة – وكانت سيدة الحمام – وقعت هي وصويحباتها فـي شـباك الصياد. قرأ القاضي: "وجعلت كل حمامة مـنهن تضـطرب على ناحيتها وتعالج الخلاص بنفسها. فقالـت المطوقـة: لا تخاذلن في المعالجة، ولا تكن نفس كل واحدة منكن أهم إليها من نفس صاحبتها، ولكن تعاون فلعلنا نقلع الشـبكة فينجـي بعضنا بعضا. ففعلن ذلك فانتزعن الشبكة حين تعاون عليهـا وطرن بها في علو السماء"

- أبي أريد التبول.

وهل هذا وقت التبول؟! توقف القاضي وذهب الولد.

أحمق وسخيف وصوته نحاسي مـزعج قطـع القـراءة الرخيمة وخيط الحكاية الجميل. كان الغيظ يملأ صدر تـودد وإن بقيت على حالها بلا حراك تحت الأريكة. وهـذا الولـد الغبي كيف تراوده نفسه الذهاب إلى بيت الخـلاء ومصـير المطرقة معلق في الحكاية؟!

وأخيرا عاد الولد وواصل القاضي. طـارت المطوقـة حاملة الشباك مع صاحباتها إلى أن وصلن إلى الجرذ صديق المطوقة. قرأ القاضي:

- "فنادته المطوقة باسمه – وكان اسمه زيرك – فأجابها من الجحر وقال: من أنت؟ فقالت: خليلتك المطوقـة فخـرج إليها مسرعا فلما رآها في الشبكة قال لها: يـا أختـي، مـا أوقعك في هذه الورطة وأنت من الأكياس؟ قالت له: أما تعلم أنه ليس من الخير والشر شيء إلا وهو محتوم علـى مـن يصيبه، بأيامه وعلله وكنه ما يبتلي به من قلتـه وكثرتـه؟ فالمقادير هي التي أوقعتني في هذه الورطة، ودلتنـي علـى الحب، وأخفت على الشبكة حتى لجحت فيها وصويحباتي".

واصل القاضي: "ثم أن الجرذ أخذ في تقريض العقد التي كانت فيها المطوقة، فقالت له "ابدأ بتقريض سائر عقد الحمام قبلي وانصرف إلي.. فأعادت ذلك عليه مرارا – كل ذلك لا يلتفت إلى قولها – فلما ألحت عليه قال لها: قد كررت علـى هذه المقالة كأنك ليس لك في نفسك حاجة، ولا تـرين لهـا عليك حقًا. فقالت له المطوقة: لا تلمني على ما سألتك: فإني قد كلفت لجماعتهن بالرياسة، فحق ذلك علي عظيم. وقد أدين إلى حقي في الطاعة والنصيحة، بمعونتهن وطاعتهن، وبذلك نجانا ا من الصياد. وإني تخوفت – إن أنت بـدأت بقطـع عقدتي، أن تمل وتكل ويبقى بعض من معي. وعرفت أنـك إن بدأت بهن وكنت أنا الأخيرة لـم تـرض- وإن أدركـت الكلال والفتور –حتى تخلصني مما أنا فيه. فقال لها الجرذ:

- وهذا أيضا مما يزيد أهل مودتك فيك رغبة، وعليـك حرصا وأخذ في قرض الشبكة حتى فرغ منهـا، وانطلقـت المطوقة والحمام راجعات إلى أماكنهن.

- أبي رجعت.

- ألا تنتظر حتى أقرأ عليك كيف تعرف الغراب علـى الجرذ وما دار بينهما.

- بطني يوجع من شدة الجوع.

- إذن نكمل بعد غد.

انتظرت تودد حتى خرج القاضي وابنه وواصلت إلـى خارج البيت وما أن ابتعدت عنه حتى راحت تتقافز راقصـة وتركت وتغني، ولما التقت بسعيد وحافظ قالت إنها ستصـنع لكل منهما سلة صغيرة من الجريد فجلـس الولـدان حولهـا مبهورين وهي تضفر أوراق النخيل بسرعة ومهارة.

وبعد يومين أعادت تودد الكرة واختبأت تحت الأريكـة ولم يبد الوقت طويلاً كالمرة السابقة إذا قطعته باستعادة مـا سمعته من الحكاية. ترى ما الذي يحدث بعد ذلك وأي صداقة تلك التي تنشأ بين الغراب والجرذ وما الذي سيفعلانه؟!

تمنت أن تطول الحكاية ولا تنتهي حتى لو قضـت كـل أيامها التالية قابعة تحت الأريكة.

جاء القاضي وحكى لابنه عن لقـاء الجـرذ بـالغراب وذهابهن معا إلى السلحفاة وكانت تودد التـي شـدها خـيط الحكاية في المبتدى يأسرها الآن حديث الحيوانات التي تنطق بالحكمة وتضفر كلامها بمهارة مدهشة تفوق مهارتهـا فـي ضفر جريد النخيل.

حكى الجرز همومه للسـلحفاة فنصـحته بـأن يتناسـى اغترابه ووحشته قالت: "استعمل علمك ولا تحزن لقلة مالك، فإن الرجل ذا المروءة قد يكرم على غير مال، كالأسد الذي يهاب وإن كان رابضا، والغني الذي لا مروءة له يهـان وإن كثر ماله، كالكلب الذي يهان وإن طوق وخلخل. ولا تكبـرن في نفسك اغترابك فإن العاقل لا غربة عليه ولا وحشـة ولا يتغرب إلا ومعه ما يكتفي به من علمه ومروءتـه، كالأسـد الذي لا يتقلب إلا ومعه قوته التي بها يعيش حيثما يتوجه".

وسمع الغراب كلام السلحفاة وراح يتحدث معهـا. ولـم تتمكن تودد من متابعة كلام الغراب إذ كانت تجتهـد لكـتم عطسة تهدد بفضح أمرها. كتمت العطسة وتنفست في ارتياح واستعدت لمعرفة ما الذي حدث عندما أقبل علـى الغـراب والجرز والسلحفاة ظبي يسعى فإذا بالعطسة تفلت منها فيرتج جسدها ارتجاجا ويصطدم رأسها بقاع الأريكة التـي يجلـس عليها القاضي.

وجدت تودد نفسها منبطحة على الأرض لا تجرؤ علـى تحريك يدها لفرك ذلك الجزء المؤلم مـن رأسـها. رفعـت الأريكة من مكانها، ورأت تودد مركـوب القاضـي بحـذاء

رأسها، رفعت عيناها ببطء من المركوب إلى القفطان ومـن القفطان إلى الرأس فالتقت بعين القاضي المبصرة. انـتفض جسدها هلعا وهبت واقفة بغية الهرب ولكن يد القاضي كانت تمسك بتلابيبها.

من أنت وماذا تفعلين هنا؟

انعقد لسانها.. صفعها القاضي صفعتين كادتا تطيحـان برأسها وقبل أن يهوى بكفه للمرة الثالثة أفلتـت مـن يـده وأطلقت ساقيها للريح.

في اليوم التالي ذهبت إلى عمار وطلبت منه أن يحكـي لها حكاية الحمامة المطوقة.

- حكاية الحمامة المطوقة؟!

- أنها قصة كان يقرؤها القاضي على ابنه مـن كتـاب يملكه.

- ولكني يا تودد لا أعرف شيئًا من القصص المكتوبـة في الكتب.

سالت دموعها وانتحبت حتى ارتج جسـدها مـن شـدة البكاء. حايلها عمار، وأعطاها قطعة سكر وحاول أن يحكي لها حكاية أخرى ولكنها استمرت في البكاء.

وظل قلبها مشتعلاً بالغيظ مختنقًا بالحسرة حتـى أتتهـا فكرة شرعت في تنفيذها ما إن سمعت صياح الديك. تسـللت إلى بيت القاضي وانتظرت خروجه لصلاة الفجر ودخلت إلى قاعة الكتب وسرقت كتابا وطارت بغنيمتها عائدة إلى الكوخ.

جلست بالباب تتأمل مغلفه الجلدي الأزرق يجلله إطـار من النقوش الذهبية يتوسطه رسم الكلمـات يسـتقيم ويميـل ويصعد ويهبط في انسياب جميل. لم تكن تعرف إن كان هذا الكتاب هو الذي تضم صفحاته حكاية المطوقة ولكنـه كـان كتابا كبيرا وجميلاً وكانت سعيدة به.

أخرجت تودد الرسالة المطوية من صـدرها ونشـرتها على صفحة الكتاب المفتوح وتملتهـا. لـم تكـن سلاسـل المخطوط فيها مستقيمة ومنسابة كالسطور المرسـومة فـي الكتاب. حدقت فيها وتمعنت. ترى ما المكتوب في الرسـالة التي ستحملها في الغد إلى المزارع؟

لم تقبل حمل الرسالة حبا في حافظ، على محبتها له، بل كان توقها للاستطلاع والمعرفة هو السبب. فما هي حكايـة هذه المرأة؟ هل هي شابة أم عجوز؟ هـل تعـرف القـراءة

والكتابة ومن علمها وكيف؟ ليس في الجزيرة كلها من يقـرأ إلا بنات السلطان؟ حتى بنات القاضي لم يتعلمنها.

ثم إن حافظ قال إن الرسالة مهمة وإنه لم يجد من نسـاء الحي من هي أجدر منها بحملها. سرها كلام حافظ، وسرتها ثقته في قدرتها على توصيل الرسالة بنجاح.. وإن وقع ما لا يحمد عقباه؟ لم يقلقها ذلك. ستتصرف بما يمكنها من الخروج من المأزق.

طوت تودد الرسالة وأعادتها إلـى صـدرها ومسـحت الكتاب بطرف ثوبها وأودعته الصندوق ثم حملته إلى الكوخ وأعادته إلى مكانه.

تمددت على الحصيرة بجوار أهلها النائمين وظلت تتابع هدير البحر فحملها خيالها تارة إلى جرز ماهر يقرض شبكة هائلة وقع فيها سرب من حمام وتارة إلى خطواتها الحـذرة لتسليم رسالة لا تدري المخطوط فيها إلى امرأة تجهلها.

(٦)

عودة الغائب

ركب سعيد سفينة هولندية تتوقف في عدن في طريقها إلى أفريقيا الجنوبية. وبدت له الرحلة طويلة وموحشة ولم يكن على متن السفينة من يتحدث العربية سوى ملاح يوناني يعرف منها كلمات معدودة.

ولما وصل سعيد عدن كان عليه الانتظار لعدة أسابيع قبل أن يجد مركبا تحمله إلى الجزيرة ولكن الانتظار لم يكن بصعوبة الرحلة إذ كان بإمكانه الحدث مع الناس ومشاهدة المدينة والتجوال في أسواقها.

ثم وصلت سفينة عمانية عائدة من الشمال وجهتها زنزبار ثم مسقط.. تحدث سعيد مع بحارتها فتوسطوا لدى قبطانها الذي قبل أن يعمل سعيد عليها ويوصلوه إلى الجزيرة. وقضى سعيد أوقاتًا طيبة برفقة البحارة العمانيين الذين كانوا يجلسون للتسامر كل ليلة فيحكون النوادر والطرف ويتحدثون عما شاهدوه من عجائب في الموانئ الأوربية وأحوال عمان بعد أن خلت خزائن الدولة وركبتها

الديون وما سمعوه من البحارة الأفارقة عن الفظـائع التـي يرتكبها الأوربيون في البلاد التي يحتلونها.

- وأنت يا سعيد ماذا لديك؟

- كنت في الإسكندرية عندما ضربها الإنجليز، رأيـت بوارجهم وهي تضرب الطوابي وتدمرها ورأيت الأهالي وهم يلعنونهم ويدعون لعرابي بالنصر.

- وهل عرابي حاكم مصر؟

- لم يكن حاكم مصر ولكن أهلها يحبونه. كـان قائـد جيشها وهو الذي حارب الإنجليز ولكنه هزم فاحتل الإنجليز مصر ونفوه.

- حكى لي بحار إفريقي عن حوار دار بين أهل قريتـه والمبشر الفرنسي الذي جاء إلى القرية واستقر بها.

قال: "حدثنا المبشر لساعات طويلة عـن جمـال بـلاده وروعتها وطيب الحياة فيها فقلنا له كلامك لا يمكن أن يكون صحيحا فلو أن الحياة في بلادكم جميلة كما تصف لما جئـتم إلينا هنا وضايقتمونا بهذا الشكل. قال المبشر محتجا: "ولكننا لا نزعجكم. جئنا لنساعدكم ونعلمكم.. قال أهل القرية: هـل تساعدوننا في بناء أكواخنا؟ قال المبشر: لا.. قالوا له: هـل

تزرعون لنا الأرض؟ قال المبشـر: لا.. قـالوا لـه: هـل تصنعون لنا الرماح التي نحمي بها أنفسنا مـن الحيوانـات المفترسة؟. قال المبشر: لا ولكننا نصنع السفن الكبيرة التـي ترونها في الميناء، والبنادق الأكثر فتكًا من الرماح. قال لـه أهل القرية: حسن، علمونا كيف نبني السفن ونصنع البنادق!"

استغرق البحارة في الضحك ولم يتوقفوا إلاّ عندما قـال أحدهم:

- هل تذكرون الأميرة سلمى أخت سلطان زنزبار التي هربت مع ضابط ألماني وتزوجته؟

- هذه حكاية قديمة.

- الجديد فيها أنها عادت لزيارة زنزبار في حماية سفينة حربية ألمانية.. وقال لي بحار من أهل زنزبار أنهـا نزلـت الجزيرة سافرة كنساء الإفرنج ترتدي ثيابا كـالتي يلبسـنها وقبعة مزينة بالريش.. تجولت في الجزيـرة وتحـدثت مـع الناس وزارت من أرادت.

- وماذا فعل أخوها؟

- وقف مكتوب اليدين يراقب ويكظم غيظه فقد جـاءت إلى الجزيرة كمواطنة ألمانية عالية المكانة.

البحارة يقولون إنها تساعد الألمان وهم يستشيرونها أما أخوها السلطان برغَشْ فيخدم الإنجليز ويتبعهم ومن يـدري لعله خائف أن يستولي الألمان علـى جزيرتـه وينصـبونها حاكمة على زنزبار بدلاً منه.

- سبحان ا .

- هل تذكر ذلك القواد الذي كان يأتي بالغلمان للقباطنة؟

- برغَشْ؟

- هو بعينه.. رأيته في الميناء في عدن فناديـت علـى حمود وخليل ومحمد وأشبعناه ضربا حتى كاد يمـوت بـين أيدينا.

قال حمود:

- وا أن لم يمنعني خليل ومحمد لما تركتـه إلا جثـة هامدة.

التفت حمود إلى باقي الجالسين وقال موضحا:

- أنتم لا تعرفون حكايته، هذا الرجل كان لوطيا وقوادا إن توزع نتانة خلقه على بلد تملؤها بـالعفن. قبـل عشـر سنوات كنا على سفينة كهذه نعمل بما يرضي ا فيقدمون لنا طعاما فاسدا ترى الدود بعينيك يخرج منه. قلنا لن نأكل ولن

نعمل إن لم تغيروا الطعام ولما لم يستجيبوا لنـا قررنـا أن نستولي على السفينة. أعددنا كل شيء، الحبال لتقييد الضباط والعصى والسكاكين للدفاع عن أنفسنا واتفقنا كيـف ومتـى نبدأ. وكان كل البحارة معنا فجميعهم كان يقهرهم التفكير في أنهم يعملون على سفينة تحمل أطنانًا من المتاع الثمـين ولا يقدم لنا فيها سوى ما يعافه الكلاب.

سأل سعيد:

- واستوليتم على السفينة؟

- الكلاب برغَش هو الذي حال دون ذلك.

- كيف؟

- وشى للقبطان فقبض علـى قادتنـا وأعـدموا رميـا بالرصاص وحكم على كل واحد منا بخمسين جلدة.

قال سعيد:

- أنا مع حمود لو كنت معكم ورأيت برغَش هـذا لمـا تركته حيا إن لم يكن ثأرا لزملائكم الذين قتلـوا فللخمسـين جلدة.

قال بحار مسن:

- أنتم شباب تجري الدماء الحارة في عـروقكم ولكـن عندما يتقدم بكم العمر ستعرفون أن الإنسان لا يفعل دائما ما يتمنى وأن الشر من حوله أقوى منه ولا يملـك الانتصـار عليه. ا وحده هو المنتقم.

ولكن سعيد أصر في عناد:

- ولكن الإنسان لا يترك حقه ولو صدق كلامك لكـان عرابي على خطأ حين حارب الإنجليز.

- ولكنه هزم يا بني.

- لكنه حاول يا والدي.

ضحك أحد البحارة وقال:

- سنسميك المصري يا سعيد!

ضحك سعيد وقد أعجبته التسمية.

***

تعلقت عينا سعيد بنقطة متعاظمة في الأفق حتى لاح له النخل الأليف والتلة الصخرية والشواطئ تلتوي وتتعرج في لقائها القديم بالبحر.

الأرض تقترب وسعيد يتطلع والنوارس تنثر أبيضها في زرقة السماء والبحر.

ثم رست السفينة وغادرها سعيد وفي يده السـلة التـي كانت أم إبراهيم قد ملأتها له بالخبز، أودع فيهـا جلبـابين ومركوبا ورطلين من البن اشتراهما من عدن والهدية التـي حملها لأمه من مصر.

التقى صبية تلعب بالقرب من البيت، سألها:

- هل آمنة بالدار؟

- من أنت ولماذا تسأل؟

- أنا سعيد..

حدقت فيه ثم ابتسمت:

- لم أعرفك، ألا تعرفني؟!

ثم قالت له اسمها واسم أبيها وأمها فضحك.

- طبعا لم أعرفك عندما سافرت كان طولك ثلاثة أشبار فأصبح طولك مترا.

ضحكت البنت وقالت له وهي تركض مبتعدة:

- سأذهب لإخبار أمك.

تطلعت آمنة إلى البنت باستغراب كأنها تنطق بلغة غير مفهومة، مرت ثوان ثم انطلقت كالسهم.

كيف قطعت آمنة الطريق؟ من رأت في طريقهـا؟ هـل حدثها أحدهم وسألها لماذا تركض؟ هل أجابته وبماذا أجابت؟ هل ركضت معها البنت أم ظلت بالمطبخ؟ لا تملك الإجابـة فهي لا تدري، ومن لمحها في الطريق لم ير منهـا سـوى ساقين تركضان وجديلتين تتطايران في الريح وصوتها ينادي على سعيد فيتردد الصدى في جنبات التلة.

سمع سعيد الصوت فركض في اتجاهه ثم رآها فجـرى أكثر، احتضنته وبكت، قبلت رأسه وجبينه وكتفيه، ابتعـدت خطوتين وتأملته ثم عادت تضمه إلى صدرها، سحبته من يده داخل الكوخ وأجلسته بجوارها قالت: "ازددت طولاً يا سعيد، واعرض منكباك وخط شاربك كالرجال".

وضحكت وضحك.

أحضرت مركوبه القديم وجلبابه – كعادتها كانـت قـد غسلته وطوته ووضعته تحت فراشه – لم يتجـاوز الثـوب ركبيته ولم يدخل المركوب إلى نصف قدميه. كانت تضـحك وكانت تبكي، كانت تقوم وتقعد، كانت تلمسه وتتأمله وتسأله ويشرق وجهها ويغيم، يتورد ثم يشحب ثم يعود يتورد.

هرولت إلى الجارة واستدانت مقدارا من طحين وأوقدت نارا وراحت تخبز له فطيرة.

تأملها سعيد وقال: "ازددت جمالاً يا آمنة".

تطلعت إليه وقد اكتسى وجهها بابتسـامة حيية أكـدت طابعي الحسن على وجنتيها قالت: "هدني بعدك يا سعيد".

سألته عن رحلة الذهاب، سألته عن رحلة العودة، سألته أين عاش وكيف عاش، سألته أن كان يحتفظ بالحجاب الـذي صنعته له..

ظلت جالسة لصقه تتابع حديثه حتى سمعت ديك الجارة يصيح فأصرت أن ينام – رقد على فراشه فأحكمت الغطـاء على جسمه وجلست بجواره تتطلع إلـى وجهـه المستسـلم للنعاس ثم قامت لتذهب إلى عملها.

كان سعيد يتابعها بعينيه وهو من بـين اليقظـة والنـوم يتأمل ملاحة وجهها وطول قدها النحيل وشـعرها الأسـود المضفور كأذناب الخيل.. رآها بهية ومشرقة يضيء وجهها الشال البرتقالي الذي اشتراه لها من مصر وفرحتها باللقاء.

ابتعدت آمنة خطوات ثم عادت وقد تذكرت عمار "هـو الذي بشرني يا سعيد، هو الذي رأى عودتـك فـي المنـام،

سأخبره أنك عدت وأقول له أنك ستذهب لزيارته"، ثم مضت يغطي الشال البرتقالي رأسها وينسدل حتى منتصف ظهرها.

لم ينم سعيد بل خرج يمشي في الجزيرة. بدأ بالـذهاب إلى شاطئ الصيادين للسؤال عن حافظ فأخبروه أنـه خـرج للصيد. التقى بالعديد من الصيادين الأكبـر سـنًا، عـرفهم واستغرب أنهم لم يعرفوه. كان يكرر: "أنا سعيد، سعيد ابـن آمنة الخبازة!" فيضحكون بدهشة ويقولون: "كبرت يا سـعيد. صرت تشبه جدك، كيف لم نتعرف عليك؟!".

تركهم سعيد وسار جنوبا حتى وصل إلى بساتين النخيل ثم تجاوزها إلى الحقول ولكنه لم يقترب أكثر فقد كان يعرف أنه محظور على غير العبيـد مـن المـزارعين والأمـراء ومساعديهم الذين يديرون المزارع دخولها.

ظل يمشي في سكة محاذية، مر بحقول القطن والذرة و حقول القرنفل وبساتين الموز وأشـجار الخـروب والتمـر هندي، ورأى العبيد عن بعد ينحنون على الأرض كما كـان ينحني عليها مع عم أبو إبراهيم وأولاده ثم عاد أدراجه إلـى بساتين النخيل وتمدد في ظل نخلة ونام.

استيقظ بعد أن وافت الشمس غروبها فعاد مسرعا إلى البيت فوجد أمه في انتظاره، قالت:

- قلت لنفسي هل كان حلما يا آمنة؟ هل غاب عقلك وصور لك قلبك سعيد وقد عاد إليك؟ تعال يا سعيد لتأكل لقد خبزت لك فطيرة لم أخبز مثلها في حياتي، عندما عرفت أم لطيف بعودتك أعطتني سكرا وزبيبا لكي أصنعها لك.

جلسا يأكلان وكانت آمنة تضحك وهي تحكي له عن عيون النساء التي لم ينزلنها عن الشال.

- قالت لي تودد لو جاءني سعيد بشال مثله أتزوجه في الحال!

- هل مازالت معرضة عن الزواج؟

- لم أر صبية مثلها، طلبها عديدون ولكنها في عناد البغال! تقول لن أتزوج إلا رجلاً يقرأ ويكتب ويملك كتبا كالتي يملكها القاضي.

ضحك سعيد.

- غدا قولي لها سعيد صار يقرأ ويكتب ولكنه لن يتزوجك، سيتزوج فتاة من مصر.

- تتزوج من مصر؟!

قال سعيد متخابثًا:

- فتاة جميلة من الإسكندرية.

وراح سعيد يعيد عليها ما سمعه من الولد محمود عن البنت التي يحبها ويزيد.

كنت أمر من تحت نافذتها كل يوم.. كانت تطل على استحياء وتبتسم، جميلة عن بعد، مليحة عن قرب، كلما تطلعت إليها زادت حسنًا، وجهها كالبدر التمام وابتسامتها آه لو رأيت ابتسامتها يا أمي!

كان سعيد يبتسم مستعذبا اللعبة ولكن أمه كانت قد توقفت عن الكل.

- تتزوج من مصر وتقيم فيها؟

- أقيم فيها وأعمل بالفلاحة كباقي أهلها.

لم يرق الكلام لآمنة فغيرت دفة الحديث.

- سألني اليوم عمار عنك.. متى تذهب لرؤيته؟

- غدا سأذهب.

بدأ سعيد يومه التالي بالتوجه إلى التلة. كان يصعد حين اعترض طريقه أحد الحراس.

- إلى أين؟

- أقصد عمار خادم السلطان.

- هل أنت غريب من الجزيرة؟

- لست غريبا عنها فأنا سعيد ابن آمنة الخبازة.

- مادمت من أهل الجزيرة فكيف لا تعرف أنه ممنـوع على الرجال صعود التلة وفيها أقبية المساجين والبيت العالي الذي يسكنه الحريم وقلعة السلطان نفسه؟

- ولكني أريد رؤية عمار، لقد كنت مسـافرا وطالـت غيبتي. عمار لم يعد قادرا على نزول التلة ولا سبيل لرؤيته إلا أن أصعد أنا إليه.

- عد أدراجك يا رجل ولا تكن مشاغبا!

استدار سعيد هابطًا ثم توجه إلى شاطئ الصيادين. لـم يكن حافظ قد عاد من رحلته بعد. جلس مع بعض الصيادين يعاونهم في رتق الشباك.. ضحك أحدهم معلقًا على سـرعته في العمل:

- لم تنس يا سعيد!

- لم أنس!

سألوه عن رحلته فحدثهم وسألهم عن أحـوال الجزيـرة فقالوا له أن كل شيء بقى على حاله منـذ تـرك الجزيـرة

"السلطان في القلعة والعبيد في المزارع لا يمـر أسـبوع إلا ويقبضون على واحد من رجالهم ويلقون بـه فـي الأقبيـة. ونحن، كما ترى، على حالنا نخرج للصيد ونعـود، نعطـي السلطان النصف المستحق ونأخذ النصف المتبقي. لا جديـد في الجزيرة إلا تلك المحطة التي أقامهـا عسـكر الإنجليـز ولكنهم في حالهم في شرق الجزيرة لا يأتون إلينا ولا نذهب إليهم".

بقى سعيد مع الصيادين بعض الوقت ثم تـركهم وسـار شرقًا ليرى تلك المحطة التي حدثوه عنها. ظل يمشي بمحاذاة الشاطئ حتى رأى عمائر مبنية بالحجـارة ومطليـة بلـون رصاصي. لم يكن قد اقترب منها بعـد عنـدما اعترضـت طريقه أسلاك شائكة وراءها حراس مسلحون فاستدار راجعا إلى البيت.

في المساء انهمكت أمه في إعداد سمكتين للعشاء. قـال سعيد:

- حاولت الصعود إلى التلـة لزيـارة عمـار ولكـنهم منعوني وقال الحارس أن الرجال لا يسمح لهم بالصعود.

ضحكت أمه.

- أصبحت رجلاً يا سعيد وصاروا يخشون اقترابك من بيت الحريم!

لم يضحك سعيد

- ولكني أرغب في رؤية عمار فكيف أراه!

واصلت آمنة إعداد السمكتين ولما جلسا للعشاء قالت له:

- سأصف لك ساحة قطـع الـرءوس، السـاحة التـي بالطرف الغربي من الجزيرة؟

- أعرفها..

- عندما تكون الساحة عن يمينـك تجـد السـكة إلـى يسارك.. إنها سكة وعرة ومتعرجة ولكنها توصلك.. متـى تنوي الذهاب؟

- غدا..

- سأخبر عمار لينتظرك عند نهايتها.

في الصباح توجه سعيد إلى السكة التي وصفتها له أمه. عندما وصل الساحة تذكرها ولم يكن قد اقترب منها منذ كان في الثامنة من عمره. يومها دار المنادي في الجزيرة معلنًـا أن الأمير نعمان قد أصبح سلطانًا بدلاً من أخيه علي الـدين الذي خان الأمانة وتنكر لرباط الدم. قال سعيد لأمه إنه يريد

الذهاب للساحة ليشاهد ما يفعله السلطان بأخيه فرفضت قائلة: "لن ترى إلا ما يفزعك ويوجع قلبك، لا تذهب". ولكنـه لـم يطعها وذهب مع حافظ دون علمها. كانا يريدان الفرجة.

رأى سعيد وحافظ كما رأى الناس المحتشدون السـلطان المخلوع وهم يقتادونه إلى الساحة مقيـد اليـدين معصـوب العينين ورأى السياف وهو يرفع يده ويهوى بالسيف عليـه. ورأى الرأس وهي تطير في الهواء وتسقط متدحرجة كحجر. ثم سمع حراس السلطان يعلو صوتهم بالتكبير.

ولم يعد سعيد إلى هذا الطرف من الجزيرة بعد ذلك أبدا ولم يكن ليفكر في الاقتراب منه لو لم تصف له أمه سكة إلى التلة توصله إلى عمار.

ظل سعيد يصعد الطريق المتعرجة حتـى رأى عمـار واقفًا في انتظاره. كان جسده قد أصبح نحيفًا إلى حد الهزال وإن بقى ممشوقًا وفارع الطول. احتضنه سعيد ولمعت عيناه بالدموع وهو يتملى الوجه الأبنوسي اللامع والشعر القطنـي والنظرة الأليفة في العينين.

أجلسه عمار بجواره وأخذ يسأله عن رحلتـه وأنصـت لحديثه عن مصر وأهلها الذين يعملون بالزراعـة وقائـدها

عرابي الذي نفاه الإنجليز بعد أن كسروا جيشه وهزموه كان عمار يسمع وعيناه اليقظتان وقسمات وجهه تواكب الحـديث تركض معه وتتباطأ، تبتسم وتضـحك، وتغـيم بـالحزن أو بالعتاب فيستحضر سعيد طفولته وهو يجلس مـأخوذًا أمـام عمار وهو يحكي الحكايات. ولم يكن لسان عمار هو وحـده الذي يحكي بل كان وجهه وعيناه كمرآة مسـحورة تحيـي الكلمات وتطلقها فتكشف المخفي فيها من حزن وفرح وخوف ورجاء.

وعندما أوشكت الشمس على المغيب قام سعيد ليعود إلى البيت فقال له عمار وهو يمد يده إلى جيبه:

- أتيت لك بهدية.

ضحك سعيد..

- قطعة سكر، أليس كذلك؟

فضحك عمار..

- كبرت على قطعة السكر يا سعيد.

وأخرج يده من جيبه وفتحها فإذا بها دينار من ذهب.

- أعطاه لي السلطان خالد رحمه ا حين تـزوج ابنـه الأكبر علي الدين لم تكن قد ولدت يا سعيد ولا كانـت أمـك آمنة قد جاءت إلى هذه الدنيا.

مد له عمار يديه بالدينار.

- خذه يا سعيد، خذه لتمهر به عروسك!

***

(٧)

القهوة المحرمة

وقفت آمنة أمام البيت تحرس الطريق بعينيها فماذا لـو مر عابر سبيل فتعرف على الرائحة أو فاجأهم زائر فـرأى بعينيه سعيد وحافظ وهما يحتسيان ما حرمه السلطان؟

أتى بها سعيد عند عودته من السفر وعندما فتحت الكيس ورأت حباتها الخضراء لم تعرف كنهها فسألته.. أجابها:

- قهوة
- قهوة؟!
- نعم
- ولكنها حرام!
- من حرمها؟
- القاضي أفتى بذلك وقال إنها بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار. وأعلن المنادي في الجزيرة أن القهوة محرمة بأمر السلطان فاسمها من اسم الخمر وهي مسـكرة وسامة وتلعب بالعقول ومن يتعطاها يعاقب بمائة جلدة.

- ولكنها ليست حراما، في مصر يشربونها وفي عـدن يزرعونها ويتاجرون فيها ولم يحرمها إلا سلطان جزيرتنا.

لم يلتفت لكلامها، حمصها وطحنها ودعي حافظ وأوقـد نارا، ملأ الركوة بالماء وألقماها البن وجلسا ينتظران غليانها وهما يتحدثان والمكان من حولهما يعبق بالرائحة النفاذة.

لم يرق الأمر لآمنة ولكنها قالت لنفسها إن الصبر طيب ورطلان من البن لن يدوما إلى الأبد. غـدا يفـرغ الكـيس القماشي فتغسله وتجففه وتحفظ به طحينًا أو تمرا وتستريح.

لم يكن الكيس قد فرغ عندما نادتها أم لطيف وانتحت بها جانبا من ساحة المطبخ وهمست:

- كيف حال سعيد؟

- بخير والحمد .

- هل صحيح أنه يحتسي القهوة؟

- القهوة؟! لم نسمع اسمها إلا عندما نادى المنادي بـأن السلطان حرمها. وسعيد لم يذقها في حياته ولم ير شكلها ولو رآها لما عرف كنهها.

- لا تخف عني شيئًا يا آمنة. حافظ ابن أختي ويهمنـي أمره كما يهمك أمر سعيد. ولقد أسرت لي أختي بما يفعلانه.

قالت لي: "سعيد وحافظ يشربان القهوة ويذهبان في ستر الليل إلى مزارع العبيد وقد يكون لهما مآرب في بعض فتياتهم".

- يا أم لطيف لم ندخل القهوة بيتنا ولم يذقها سعيد وهو لا يذهب إلى مزارع العبيد ليلاً. أنه ينام قبلي واستيقظ قبله وعندما أقوم في الليل أجده مستغرقًا في النوم فأحكم الغطاء عليه وأعود فأغفو.

- ولكن سعيد وحافظ صاحبان لا يفترقان وما يفعله أحدهما يفعله الآخر!

تركت آمنة أم لطيف لتواصل الخبيز وقد انخطف لونها فماذا لو شاع في الجزيرة أن ابنها يتعاطى القهوة فوصل الخبر للسلطان؟

وماذا لو صدق كلام أم لطيف وكان سعيد يقترف الممنوع ويذهب خلسة إلى المزارع ليتسامر مع العبيد؟ وهل يذهب إلى المزارع ليتسامر أم ليضاجع النساء بالحرام؟ وهل يمكن أن يفعل سعيد ذلك؟ هل غيره السفر فعاد بلا عقل وحافظ يتبع خطوه ويقلده أم أن حافظ هو الذي يدفع به إلى الفعل الأهوج؟!

انتهت آمنة من عملها وغادرت ساحة المطـبخ قاصـدة بيتها. رأت عمار جالسا في ظل شـجرة وعينـاه مبللتـان بالدموع:

- ما بك يا عمار؟

- لا شيء يا آمنة.

- ولكنك كنت تبكي؟

- غفوت وأيقظني هديل حمامة فبكيـت. هـل تحبـين الحمام يا آمنة؟

لم ينتظر إجابتها.

- هل قلت لي إن سعيد تعلم الكتابة؟

- تعلمها يا عمار.

- أريده أن يكتب لي رسالة.

- رسالة؟!

- سأشتري حمامة زاجلة وأحملها رسالة إلى أمي.

- في أي أرض يا عمار؟

- الحمامة ستعرف طريقها. قولي لسعيد أننـي أريـده ليكتب لي رسالة.

- سأخبره يا عمار ولكنني أريد أن أشكوه لك.

جلست بجواره وقد أراحها أن تجد من تفضي له:

- سعيد يشرب القهوة يا عمار..

- القهوة؟!

- يشرب القهوة ويذهب إلى المـزارع المحـرم علينـا دخولها.

- لا تقلقي يا آمنة أنه شاب صغير، غدا يهدأ ويعقل.

- لو عرف السلطان بأمر القهوة لأمر بجلده مائة جلدة، وقد يلقى به في الأقبية ولو وشى أحدهم بأنـه يـذهب إلـى المزارع فا أعلم ماذا يكون عقابه.

- سأنصحه يا آمنة، قولي له أن يأتي إلي ولا تنسي أن تخبريه أن يدبر قلما وورقة ليكتب لي رسالة.

ذهبت آمنة وتركت "عمار" جالسا تحت الشجرة يفكر في الرسالة والحمام وما يفعله سعيد. للشباب كبواته، كـان فـي عمر سعيد يوم سرق رفيق له زجاجة خمر من مخزن أحـد الأمراء وشرباها معا. الطعم اللاذع تستغربه ثم تستطعمه ثم يسري في أوصالك ويدفئ قلبك. شربا وضـحكا مسـتمعين بالحديث واستغفالهما للأمير. ثم شربا أكثر حتى ثقل رأساهما فنام صاحبه أما هو فبكى وكأنما اجتمعت عليه كل همومه..

فهل القهوة كالخمر تحرك القلب وتهزم الروح؟ لـم يشـرب القهوة في حياته ولم يسمع بها إلا عندما نادى المنادي بتحريم السلطان لها. السلطان حرم عليه الزواج من مليحة. ولو تبع عمار هواه لصعد على أعلى مئذنة في الجزيرة وأعلـن أن نعمان كلب جحود ولكنه يكتم ما في قلبه ويحجبه عن الغيوم مادام السلطان سلطانًا وهو عبد لا يملـك روحـه. يضـحك للسلطان ويحممه بماء الورد ويلبسه مركبوه وهو يتمنـى أن يراه على خازوق فيضحك ملء شدقيه. نعمان كلب جحـود والحمام طير عفيف يؤنس الغريب ويـردأ وحشـته. يغنـي لإلفه، يطير معه ويحط معه وإن ذهب الإلف بقى مفردا كتلك الحمامة على الشجرة تبكي وتبكيه.

في المساء حكت آمنة لسعيد ما قالته لها أم لطيف، قال:

- لم أذهب إلى المزارع إلا مرتين اصـطحبني حـافظ لزيارة بعض شباب العبيد الذين تعرف عليهم عنـدما كـان يعمل في توصيل السمك إلى بيوت الأمراء فـي المـزارع. جلسنا وتسامرنا وعدنا، هذا كل ما حدث.

- لا داعي يا ولدي، السـلطان يحـرم علينـا دخـول المزارع، وأنت تعرف لو وشى بك أحد يكون عقابك شديدا، تسامر كما شئت مع الصيادين ولا داعي للمجازفة.

اطمئني يا أمي، لن أذهب ثانية.

أخبرها أن ريس المركب التي يعمل عليها حافظ وافـق أن يعمل معهم.

- من الغد سأخرج معهم للصيد.

- لِم لا تعمل حمالاً في الميناء؟

- أحب الخروج إلى البحر يا أمي.

كأنه سمع العبارة من أبيه فرددها. كان الصوت هو نفسه وطريقة الكلام نفسها. كأنه عبد ا زوجها وقد رجع الزمان عشرين عاما: "البحر جميل وواسع كرحمة ا ، البحر أبونـا يا آمنة وخيره بلا حدود"، "ولكنه يقتل يا عبد ا "، "لا تكفري بنعمة ا يا آمنة.. الأرض أيضا تقتل".. أخذه البحر وبقـى ابنه وصوته.

تأملت سعيد وهو نائم. كان في الهيئة والملامـح أشـبه بجده، أبوها هي، طويل قوي البنية واضح القسمات، وجهـه أسمر وبشرته صافية وعيناه خضراوان وشـعره كسـتنائي

كثيف وخشن ولكن النظرة في عينيه لم يأخذها عن جده بل من حليب ثدييها وهي ثكلى ترضعه.. نظرة حزن هادئ وعاتب ومقيم تضفي على ملامحه وهو رجل عذوبة وجه طفل يتيم.

في الغد يخرج للصيد فهل يضمر له البحر ما أضمره لأبيه وجده؟ الرجال يحبون البحر، يذهبون إليه بشوق كالعشاق فما الذي يحبونه في البحر والأرض بين أيديهم ماؤها عذب زلال؟ الأرض أكرم تودعها بذرتك فتمنحك نبتتها وثمرتها وتوفى، فلماذا يحب الرجال البحر؟

"البحر طيب، البحر كريم" كررت آمنة بصوت مسموع تسترضيه خشيته نقمته.. "سعيد بين يديك يا بحر فاحفظه وأعده كلما خرج إليك بالسلامة لي".

أغفت آمنة وعلى لسانها تمتمات تستميل البحر بإطرائه وشكره ولكنها في الحلم رأت بستانًا من أشجار الموز والليمون وحبلاً طويلاً ممتدا نشرت عليه أقمطة مواليد وملابس صغيرة وكانت تجلس بطرف البستان تدير الرحى تطحن قمحا. حكت لسعيد عن حلمها وهو يتأهب للخروج في ظلمة السحر فضحك وحمل زوادته ومضى.

(٨)

الخزانة المغلقة

يطيل السلطان في قضاء حاجته ولا يروقـه مشـروب زيت الخروع الذي وصفوه له فهو يسـتبدل ضـيقًا بضـيق فيمغص بطنه طوال اليوم ويظل يتردد على بيـت الراحـة المرة تلو المرة بدلاً من المرة الواحـدة فـي الصـباح وإن صعبت وطالت.

كان السلطان يقضي حاجته وهو يفكر أنه وحيد يحسـده الحاسدون ولا يدركون كم استودع بصدره من هموم.

في شبابه كان مولعا بفتح خزائنه وتحسس النوادر مـن جواهره الثمينة ثم انصرف عنها إلاّ خزانة واحدة ظل يفتحها كل يوم ويمعن النظر في المحفوظ بها.

يكبر المرء وتصقله التجارب فيتعلم ألا يأمن أحـدا، لا زوجة ولا إخوة ولا أولاد. بنت المحسـن عجـوز شـمطاء خاوية الرأس لا يشغلها إلا تحريم ما أحله الله له ومكايدة من ينكح من نساء كأنه يزني بهـن. وأبنـاؤه أغبيـاء عقـولهم كغرابيل مهترئة والنابه الوحيد بينهم عاد من بلاد الإنجليـز

كأفعى غيرت جلدها. دخل عليه حاسرا رأسـه يجـر وراءه عنزة عجفاء قال إنه تزوجها فصرفه من مجلسه وقد كاد في ثورة غضبه أن ينادي السياف ليقطع رأسه.

ولكن محمد ألح في طلب ملاقاته بعدها فقال تعرف الولد على جرمه وندم على ذنبه وجاء يطلب الصـفح والمغفـرة ولكن الكلب دخل عليه متقمصا هيئة الإنجليـز وقـد لـبس سروالاً مقطوعا على مقادير جسمه يكسمه ويفضحه وقال إنه أتى ليحدثه في مشروع لتطوير الجزيرة ورفعتهـا "فتلحـق بركب الأمم ويعلو نجمها ويضيء".

- لقد كتبت كل شيء في هـذه الأوراق وحملتهـا لـك لتقرأها بأناة وتتأمل تفاصيلها.

- لخص لي مشروعك في جملة أو جملتين أما أوراقـك فأقرأها فيما بعد.

- أقترح أن نعين مجلسـا للشـورى ووزراء منفـذين ونفصل خزائن الدولة عن خزائنك الخاصة ونعتـق العبيـد ونحولهم إلى العمل المأجور وأيضا..

أوقفه عن مواصلة الكلام وقد أتضح الأمر وانجلى، عاد محمد من بلاد الإنجليز ليقلب نظام الحكم في الجزيرة ويقيـد

سلطان أبيه. لم يكن السلطان بحاجة إلى قـراءة الأوراق أو معرفة المزيد. استدعى حراسه وأمرهم بالقبض على محمـد وإلقائه في الأقبية ثم أمر بترحيل عنزته العجفاء علـى أول سفينة مغادرة.

جاءته بنت المحسن تتشفع للإنجليزية قالت إنها تحمل في بطنها فأجابها "أولادنا لا يتزوجون من بنات الإنجليز فلتحمل من في بطنها وترحل فهو لا يخصنا" رجته بنـت المحسـن "انتظر حتى تضع مولودها فآخذه أنا وأربيه ثم رحلّها كمـا تشاء". بنت المحسن اختل ميزانها وخف عقلها فمـا الـذي تريده في طفل أبرص أمه نصرانية؟! صرفها مـن مجلسـه وأمر بترحيل الإنجليزية.

استراح السلطان بعد أن قضى حاجته وصـفق لخدمـه ليحموه ويلبسوه الثياب. عندما انتهوا تطلع إلى نفسـه فـي المرآة وتفحص صورته: جلباب أبيض شديد البياض عليـه عباءة من وبر الجمال مطرزة بخيوط الذهب وعلى الخصـر نطاق موشى فيه خنجر يبدو مقبضه المصنوع مـن الـذهب الخالص فوق الخصر وغمده المطعم بالنفيس من الجـواهر تحته. في الوجه الأسمر حزم وفي العينين يقظة وفي الجسـد

المربوع قوة وفي الثوب هيبة، عدل من وضع عمامته ولمس ذقنه الملتحي برفق وابتسم للمرآة متمتما:

"هكذا تكون هيئة سلطان عربي!"

كان على موعد مع الكابتن سميث قائد المحطـة، فهـل طلب الضابط الإنجليزي مقابلته للتوسط لمحمد وزوجته؟ لو طلب ذلك يكون المستور قد انكشف وأتضح أن محمد لم يقدم مشروعا سولته له نفسه بل دفعه إليه الإنجليز وأملاه عليـه، إن تحدث سميث في الأمر سيرده ويغلظ له القول ويخبره أنه لا يقبل تدخلهم في شئونه العائلية.

ولكن الكابتن كان قد جاء لغرض آخر. أخبره أن لـديهم معلومات "شبه مؤكدة" أن أمرا ما يدبر ضده في المزارع.

- تقصد أن أبنائي الأمراء يتآمرون علي؟

- لا بل أقصد العبيد.. منذ وصلنا الجزيرة ونحن نعرف أن هناك تململاً في المزارع فتابعنا الأمر ورصدناه وأخيـرا توقعنا أن هناك اتصالات مريبة بين العبيد فمجموعات بعينها تلتقي على فترات منتظمة ويتردد اسم "سراج" ولا ندري من هو الشخص ولكننا واثقين أن في هذه الاتصالات ما يـؤثر على أمن الجزيرة وأمنك الشخصي.

أردنا أن ننقل إليك ما تتوفر لدينا لكي تواجه الأمر بما نراه مناسبا ونحن مستعدون للمساعدة إن طلبتم منا ذلك.

ودع السلطان الضابط الإنجليزي حتى بوابة القلعة وشد على يده معربا عن شكره وامتنانه ثم بعث بمراسل إلى الأمراء في المزارع ليأتوا إليه قبل صلاة العصر وأمر بحضور كل عيونه وبصاصيه: "الذين في المزارع، والذين في الميناء، ومن يسكنون في حارة الحرفيين وبين أكواخ الصيادين والغواصين، أريدهم جميعا، الليلة بعد صلاة العشاء".

هل صدق سميث فيما نقله له؟ لابد من التأكد. قد يكون الإنجليز يحتالون عليه تملقًا وادعاء للصداقة وربما اختلقوا الموضوع برمته لتعضيد محمد فيبدو ما يقترحه ضرورة لابد منها مادام الحكم مهددا وكفة الأمن مختلة. وإن صدق الضابط فما العمل؟

كان لقاء السلطان بالأمراء عاصفًا قال إنهم رجال من قش لا يعتمد عليهم، قال إنهم متقاعسون مهملون يعيشون في خدر وغفلة، قال سقف البيت يتصدع ويهددنا بالسقوط على رؤوسنا. قال "هذه الجزيرة ملكي وخيراتها من حر أموالي

أنبتكم عني في حفظ الأمانـة وفـرطتم فاسـتغفلكم العبيـد واستخفوا بسلطانكم.. أقسم با العلي العظيم أن لم تغيـروا من أمركم ألقيت بكم في الأقبية مع محمد".

كان غاضبا وقد اشتعل وجهه بالسخط علـيهم حتـى إن الأمراء انسحبوا واحد وراء الآخر دون أن يجرؤ أي مـنهم على الاقتراب منه لتقبيل يديه.

ثم اجتمع السلطان وبصاصيه وكان غضبه قـد انحسـر وخمد اشتعال قلبه فصار باردا كالرصاص. أعلنهم بصـوت هادئ:

" أريد الخبر اليقين وإلا فسوف أقطع رؤوسـكم جميعـا وبلا استثناء".

لم يختل السلطان إلى نفسه ألاّ في ساعة متـأخرة مـن الليل. كان الضيق وليس الغضب هو ما يتملكه، ضيق خانق كأنما الهواء من حوله حديد إنه الجحود يسد الفضـاء مـن حوله ويثقل أنفاسه وصدره "بنت المحسـن وأولاده وعبيـده كلهم سواء يأكلهم الحسد ويعمي بصيرتهم ويختم على قلوبهم فلا يبق منها سوى رماد الجحود وحسرة الحقد.

يهب بلا حساب ولا يزدادون إلا نكرانًا للجميل. يبشرونه بالولد فينشرح صدره ويحمل عبيده الهدايا للوليد وأمه، يذهب إليها بنفسه ويحمل الرضيع بين ذراعيه، يشعر به صغيرا بلا حول ولا قوة فينشر عليه جناح رحمته. منحهم نطفة الوجود ولحم الأكتاف والاسم والثروة والمكانة فما الذي أعطوه فـي المقابل؟!.

يقولون للسلطان سبعة وخمسون من الذكور.. يحسدونه على ذريته وذريته لا شيء.. أسوأ من اللاشيء ومـن أدراه لعلهم جميعا كمحمد بصدورهم أفعى رقطاء تتحين الفرصـة لتنفث سمها.

فمه مر وصدره مثقل وليس له إلاّ إله ليشكي له لكن ا يعلم.. ا يعلم كم هو طيب وكـريم ومغبـون.. ترقرقـت الدموع في عينيه وقد غلبته الوحشة وأشفق على حاله.

دخل إلى مخدعه لينام ولكنه فوجئ بوجود امـرأة مـن جواريه. كان قد نسى في غمرة همومه أنها ليلة الخميس.

تطلع إلى الجارية، كانت صبية ممشوقة القد، صـبوحة الوجه، فأقبل عليها وقد سر لاختتام يومه الكئيب بصحبة هذا القمر الذي يفوح مسكًا ويرنو كالغزال.

جلس بجوارها تحدوه الرغبة في الحديث معها.. يفضي إليها بما في صدره فترثي لحاله وتبكي تأثرا وتمسح جبينـه مهونة عليه.

مد السلطان إليها يده وهـو يبتسـم فابتسـمت. لمـاذا ابتسمت؟! ركبته الشكوك وتوجس. ماذا لـو كانـت تخبـئ خنجرا أو سما؟ ماذا لو كانت متواطئة مع العبيد أو الإنجليز أو الأمراء أو بنت المحسن؟ ماذا لو كانت تبغي أثـرا مـن شعره أو ثوبه لتسحر له فتصيبه بالعنة أو العجز عن حكـم الجزيرة؟ ابتسمت ابتسامة غريبة. طردها وخرج إلى الشرفة لعل هواء البحر يخفف من شعوره بالاختناق.

غادر الشرفة وهبط أدراج القلعة علـى عجـل قاصـدا حظائر الخيول.

هب الحراس منتبهين ورفعوا أيديهم بالتحية صاح بهم:

أسرجوا "فيض".

أتوا له بحصانه الأدهم ركب وانطلق مبتعدا.

ركوب الخيل أمتع من ركوب النساء. تربية الخيل أجدى من تربية الأولاد. وهذا "فيض" لم يخذله كما خذلـه أولاده. ربت السلطان على عنق حصانه الأدهم. شهد ولادته فـرآه

مهرا أسود له غرة بيضاء صغيرة، عصـفورة تسـيل مـن جبهته وتدق ما بين العينين. قال سميته فيضا، لم يخذله فيض وكبر ليصبح اسما على مسمى، خفيف العدو سريعه أن تلكزه يطير. الخيول لا تطاب ملگا.. عيونهـا الوديعـة لا تخفـي وراءها قلوبا تفحمت بالكره والحسد ربت السلطان على عنق حصانه الذي راح يطأ الأرض مترفقًا يتهادى مقاربـا بـين خطاه وكأنه يشعر بما في نفس سيده ويتجاوب معه. حكـى السلطان لفيض كل ما في نفسه. حكى وبكى وتخفف وارتاح وعندما ارتاح لكز حصانه لكزة قوية بركابه فانطلق الحصان يعدو ويرجم الأرض رجما بحوافره.

بعد أيام وصلت السلطان التقارير مكتوبة مـن الأمـراء وشفهية من عيونه وبصاصيه. أكد الأمـراء أن الأوضـاع هادئة في المزارع والنظام مستتب فيها وقالوا إنهم بعد البحث والتقصي لم يجدوا مـا يثيـر الريبـة والشـكوك. ولكـن البصاصين حملوا إليه أنباء مغايرة فجـاءه أحـدهم بخبـر مجموعة من شباب العبيد عرف عنهم التذمر يسهرون كـل ليلة معا وجاءه آخر بمعلومات عن بحارة يتسللون في الليـل إلى المزارع ويشترون الخضراوات والفواكـه مـن العبيـد

ويهربونها إلى بيوتهم تحت جنح الظلام. ووافاه ثالث باسـم شخص سب السلطان علنًا وأسماء ثلاثة من العبيـد يعمـل إخوتهم في محطة الإنجليز ويلتقون بهم في السر رغم حظر الاتصال بين المحطة وأهل الجزيرة. وأجمـع خمسـة مـن البصاصين أنه لا يوجد في المزارع كلها رجل يدعى سراج بل هناك امرأة مسنة تحمل هذا الاسم.

بعد أن اطلع السلطان على ما جاءه من تقارير أصـدر أوامره باستبدال الأمراء الثلاثة الـذين يـديرون المـزارع بغيرهم من أبنائه الراشدين عينهم بالاسم، وبإلقاء القبض على المشتبه فيهم. من سبه أو تآمر عليه يقطـع لسـانه وتجـب مذاكيره، ومن سرق تقطع يده، ومن عصى أمرا من أوامره يجلد مائة جلدة على الملأ.

كان السلطان موقنًا أن الوقاية خيـر مـن العـلاج وأن معاقبة كل المشتبه فيهم كفيل بردع الآخرين فيتحسـبون لأي فعل طائش حتى ولو كان التسلل بعشر ليمونات في الظـلام. أما المرأة التي تدعى سراج فقد حيره أمرها فالجزيرة تخلـو من سجن للنساء والأعراف وتقاليد الأقدمين التـي يحـرص على مراعاتها تحول دون أن يدفع بامرأة إلى سـاحة قطـع

الرؤوس أو يأمر بجلدها على مرأى مـن الآخـرين. فهـل يتركها؟ وإن كانت عنصرا خطرا يهدد الجزيرة وأمنها؟ هل يأمر بسمل عينيها وخلع أسنانها وجدع أنفها فتكـون عبـرة للآخرين؟ حيره الأمر فأمر أن يأتوا إليه بهـا لكـي يراهـا ويتفحصها ويتحقق مما وراءها.

جاءوا بها، أعلن حاجبه ذلك. قال "فلتدخل" فدخل اثنـان من الحراس وبينهما قفة يمسك كل منهما بإحدى أذنيها. ولـم يفهم السلطان معنى ما يراه ثم انتبه عندما وضع الحارسـان القفة على الأرض أن المرأة بداخلها. هل يسخرون منه.. هل هو مزاح ثقيل.. ومن يجرؤ على ممازحة السلطان؟! كانـت المرأة ضامرة كسيح عوراء سقطت أسنانها ونحل شـعرها فبدت كعرق حطب يابس بلا حياة.

- هل أنت سراج؟
- هل أنت السلطان؟

ما شاء ا ، الحيزبون المتهالكة لا تـرد عـن سـؤال السلطان بل تسأله وكأنها المحقق!

- الست السلطان خالد؟
- السلطان خالد؟

- هو أنت بعينه.. أتظنني لا أعرفك لقد رقصت وغنيت يوم طهور ابنك علي الدين حتى أوجعنـي خصـري وبـح صوتي، كم صار عمر علي الدين الآن؟

لم يكن جسد المرأة وحده هو الذي انكمش كثمرة جافـة بل كان رأسها أيضا قد تعطن فاختل عقلها وفسدت ذاكرتها، ومع ذلك كانت المرأة المكومة في القفة تنقل عينيها من سقف القاعة إلى أرضها تحدق مشدوهة في الثريـات والأبسـطة والحواشي وهي تكرر لنفسها:

- هي ليلة القدر وطاقتها انفتحت لك يا سراج فاطلبي ما شئت.

يا سلطان عندي ثلاثة طلبات لا أكثر: أريد زوجـا لأن زوجي مات.. وأريد نعجة لأنني بعت نعجتي عندما ضـاق بي الحال. وأريد بيتًا لأن زوجة ابني تسيء معاملتي.. هـل هذا كثير؟

ابتسم السلطان ثم اتسعت ابتسامته ثم بدأ يقهقه حتى كاد يستلقي على ظهره من شدة الضحك ثم نادى علـى حراسـه فحملوا القفة وذهبوا والمرأة تصيح بصوت مبحوح:

- أليست ليلة القدر.. أليس هذا هو السلطان خالد.. مـا الذي حدث؟!

(٩)

العيد

الليلة تتلألأ "غرة العرب" بأضواء العيد فتخطف الأبصار ولا تزيد الحاسدين إلا كمدا على كمد. ابتسم السلطان لنفسـه وهو يجلس مرتخيا في حوض الحمام وخادمـه الشخصـي يصبن له رأسه وجسده.

دعي القناصل والوكلاء وأكابر الجزر المجاورة وأمـر بنشر الزينات والأضواء ومد الأسمطة لجميع أهل الجزيـرة فيعرف القاصي والداني ومن يعمر الولاء قلبه ومن يصطلي بجمرة الحقد أن يد نعمان بن خالد القوية القابضة مبسـوطة تغدق بلا حساب.

سيجلس على المنصة العالية يحيط به ضيوفه وأهل بيته، سترقص الخيول على إيقاع المزامير والطبـول وتـركض الهجن ويقدم الحواة ألعابهم ويشاهد الناس نفيس ممتلكاته من عجائب الحيوان والطير، وفي الليل ستنطلق الألعاب الناريـة فتبدد بألوانها الساطعة ظلمة السماء.

سكب الخادم ماء الورد على رأس الســلطان وجســمه. وكان خادم آخر يقف متأهبا بمنشفة كبيرة، لفه بها وجففه ثم انهمك خادم ثالث في إلباسه: الجلباب والعبــاءة، المركــوب والحزام وأخيرا العمامة.

تأمل السلطان نفسه في المرآة، ملأته الغبطة فابتسم ثــم أرسل في استدعاء بنت المحسن.

مثلت بين يديه في ثوب أسود فضفاض تتخلــل نســجه خيوط الذهب، وبرقع من العملات الذهبية المصــفوفة صــفًا يغطي وجهها من أرنبة الأنف حتى العنق. لا شيء يبدو من الوجه المجعد ولا الجسد العتيق. ابتسم السلطان "الحيزبــون الماكرة لا يبدو منها ســوى العينــين المكحــولتين والعــود السمهري والهامة العالية!" حرك رأسه مستحسنًا وصرفها.

استدعى باقي حريمه فدخلت عليه جمهــرة مــن نســاء صبغن القاعة بألوان ملابسهن الزاهية. دار بعينيه متفحصا:

الشعر محجوب والوجه مستور والجسد مصان، العيــون وحدها تشهد أن مرعى السلطان مرتع لأحلى الظباء. همهــم راضيا وصرفهن:

في ساحة قطع الرؤوس (اليوم ساحة العيد) رأى الأهالي الذين بكروا في الخروج المنصة العالية المهيأة لجلوس السلطان ورأوا الحراس في الانتظار يقفون منتبهين تتقاطع على صدورهم أحزمة البارود.

قال حافظ:

- نذهب لمشاهدة السباع المعروضة في الأقفاص.

أجابته آمنة:

- السباع لن تطير، نشاهد الحواة أولاً.

- ما المتعة في مشاهدة الحواة؟! بنا يا سعيد.

ترك الولدان آمنة وتودد مشدوهتين أمام واحد من الحواة، تتساءلان كيف يخرج أفعى من سلة فارغة ثم يعيدها إليها ويقلب السلة فإذا بها خاوية مرة أخرى.

شق سعيد وحافظ طريقهما وسط الزحام إلى الجهة الأخرى من الساحة حيث أقفاص السباع.

كان الضبع هو أول ما شاهدا: حيوان صغير الصدر، بارز البطن وكبير الكفل والفخذين.

سأل سعيد حافظ:

- لماذا يقولون أحمق من ضبع؟

- لا أعرف، أعرف فقط أن الضبع ينش القبور ويأكل الجيفة.

تأملا شكله ودورته الرتيبة في القفص وخطوته العرجاء ثم تحولا عنه.

شاهدا الأسد وأخذا بعظم هيكله ومهابة جلسته والشعر الكثيف الذي يحيط برأسه، وبدا لهما الضبع حقيرا وهما يتطلعان إلى هذا المخلوق المحكم الخلقة المفتول العضل، الجميل رغم محياه الجهم. فاجأهما زئيره العالي فتزعزت أحشاؤهما وإن ضحكا عاليا بين الفزع والتوقد. زأر الأسد مرتين ثم قام وظل الولدان بلا حراك.

لو قال لهما أحد إن في العالم حيوان أجمل من الأسد لكذباه ولكن عيونهما كذبتهما ما أن انتقلا إلى القفص الثالث. تطلعا مبهوري الأنفاس وتثبتت في الأرض أقدامهما كأنما دقت بمسامير. كان السبع الذي أمامهما أحكم خلقة من الأسد يفوقه بهاء. جسده كالأسد، عظيم الصدر والكفل والفخذين، مشدود مفتول ولكنه مديد أكثر ورشيق أكثر ولمعة فرائه الذهبي تقطعه خطوط سوداء. ترتج صفحة وجهه دون هز ويتألق ضوء عينية كنجوم الليل رغم شمس النهار الساطعة.

قوي كالأسد. مهاب مثله، ولكنه يطأ الأرض مترفقًا في خفة القطة وليونتها.

قال حافظ فجأة:

- نصعد التلة لنأتي بعمار.

راحا يصعدان في صمت. كان السـبع الأخيـر الـذي شاهداه ثالثهما يفكران فيه ويستحضران تفاصـيل صـورته ويتساءلان عنه. ترى ما اسمه وما موطنه؟ كيف تمكن منـه الصياد؟ هل ألقى عليه شباكه؟ فكيف لم يمزقها؟ هل أصـابه بالبارود وأين الإصابة في هـذا الجسـد البـديع والمشـية المختالة؟ وكيف لهذا الهيكل العظيم أن يطـأ الأرض بهـذه الخفة والانسياب؟ ترى كيف يبدو وهو يركض، كيف يبـدو وهو يصب، كيف يبدو وهو ينقض؟

شغلتهما الأسئلة فظلا صامتين إلى أن وصلا أعلى التلة.

وجدا صعوبة في إقناع عمار بالنزول معهما "أولاً نريدك أن تشاهد السباع التي رأيناها وثانيا هناك مفاجأة أعـددناها لك" تطلع إليهما عمار متسائلاً "مفاجـأة؟!" تبـادل الولـدان ابتسامة خبيثة ولكنهما لم يكشفا له السر.

أسند عمار ذراعا على كتف سعيد والأخرى على كتـف حافظ. كان يريد أن يمشي ويعاونا ولكنهما أحاطا بخصـره كل بذراع وسارا، دون أن تلمس قدماه الأرض حتى هبطـوا من التلة.

تعرف عمار على السبع وقال لسعيد وحـافظ أن اسـمه "النمر".

- قبل عامين اثنين كان صغيرا كالجرو. وكان السلطان يحيط عنقه بطوق ويمسك بطرف السلسلة في يده.

قال حافظ باعتداد كأنما النمر له أو يخصه.

- الآن كبر النمر، السلطان لا يجرؤ أن يطوقه ويمسك بطرف السلسلة في يده!

نظر عمار إلى حافظ مأخوذًا ثم حول عينيه إلى النمـر فرآه وحيدا في القفص ومع ذلك فالسلطان "لا يجرؤ" طـرب لصياغة حافظ وللفكرة فضحك.

- الآن نأخذك "للمفاجأة!".

دخل السلطان الساحة على رأس موكب فضربت الطبول وصدحت الموسيقى واشرأبت الأعناق وهرول البعيدون إلى مواقع أقرب تمكنهم من المشاهدة.

وكانت آمنة تفترش الأرض أمام قارئة الطالع. وشوشت القواقع وأعادتها للمرأة التي حركتها بين يديها وألقـت بهـا على الرمال وتطلعت فيها ثم جمعتها على عجل وصرتها في منديلها وأعادت لآمنة التمرتين اللتين كانت قد دفعتهما لهـا ثمنًا. وقالت المرأة وهي تبتعد مهرولة "سـأذهب لمشـاهدة السلطان."

وقالت آمنة لتودد وهما تسيران إلـى حيـث يمكنهمـا الفرجة.

- هل تظني أن قارئة الطالع رأت ما لا يسـر فحجبتـه عني؟

قالت تودد:

- هذه عادتك يا آمنة تتطيـرين مـن الطيـر العـابر. ركضت المرأة لكي لا تفوتها مشـاهدة السـلطان وضـيوفه وحلي نسائه وأثوابهن.

ورغم أن تودد أعادت هذا الكلام عدة مرات بعد ذلك إلا أن التوجس لم يترك آمنة حتى عندما أطلقت المدافع الألعاب النارية التي لم ير أهل الجزيرة مثيلاً لها من قبل. عناقيد من الضوء الساطع تنتشر في الفضاء وتصبغ أسوده بالأخضـر

مرة والأحمر مرة ومرة بالأصفر. كانت آمنة ترى وتسمع ولكن قلبها كان غائبا يتساءل ترى ما الذي رأته قارئة الطالع ولم يطاوعها قلبها على الإفصاح به؟!

***

عرف عمار بأمر المفاجأة. شباب العبيد يقيمون عيدا داخل العيد فالأمراء بصحبة السلطان وصخب العيد في ساحة قطع الرؤوس لن يفضح سر الطبول في ساحة منسية وسط حقول النخيل.

رأى عمار العبيد وقد افترشوا الأرض على شكل حلقة واسعة حول الساحة ورأى كومات من الحطب الموقد تحت دلات صغيرة قال له سعيد إنها ركوات القهوة فانتبه عمار إلى أن الرائحة الغريبة المميزة التي يعبق بها المكان هي رائحة القهوة.

قام جمع من العبيد إليهم ورحبوا بهم وأفسحوا لهم مكانًا للجلوس وقال أحدهم لعمار وهو يضيفه.

- تفضل يا جدي.

- شكرا يا ولدي.

قالها عمار وهو يبتسم ثم راح يرشف القهوة ويستطعمها مستجيبا.

بدا قارع الطبول يضرب آلته إيذانًا بابتداء الحفل. وكان مركز الساحة خاليا إلا من نخلة عالية في جانب منها. بحذاء النخلة وقف رجل مقنع يرتفع على عكازين خشبيين طويلين.

قرع صاخب وسريع أعقبته دقات منقطعة وبطيئة تقـدم على وقعها الرجل العالي من ظل النخلة إلى مركز السـاحة وعندما تصدر نشر ذراعيه وراح يميل يمنة ويسرة ويلـف ويدور وينحني ويستقيم تصاحبه دقات الطبلـة. ثـم دخـل الساحة راقص آخر أخذ يتعقبه ويحاكيه في كل حركة يقـوم بها وبدا الراقص الثاني أمام القامة المديدة للـراقص المقنـع وذراعيه المنشورتين كأنه ليس سوى ظله على الأرض.

ظلا يرقصان رقصة متناغمة متفقة حتى دقـت الطبلـة دقات متتالية سريعة ودار الرجـل العـالي دورات سـريعة متلاحقة قاده فيها الراقص الصغير ثم أعطى الكبير للصغير منديلاً معقودا وانصرف عائدا إلى ظل النخلة.

مال حافظ على عمار وهمس.

- هذا الرجل روح الشجرة.. هل تعرفت عليه؟

تطلع إليه عمار كأنه لا يفهم ولم يقل شيئًا ثم فجأة تدفق الضوء وكأنما أشرعت نافذة كبيرة شرقية فرأى كل شيء.. أشرق وجهه ومال على حافظ قائلاً:

- أنه روح الشجرة، عرفته، أعرفه، والمنديل المعقـود يحمل النطفة أليس كذلك؟!

ضحك حافظ.

- ها أنت تذكر كل شيء يا عمار!

همهم عمار كأنما لنفسه.

- نعم أذكر كل شيء، سأذكر كل شيء.

بدا أنه سيبكي تأثرا، كان يغالب دموعه، مال على سعيد وهمس له شارحا.

- الرجل العالي روح الشجرة وهذا الذي يـركض الآن خائفًا يحمل "النطفة" في المنديل المعقود، وعليه أن يصونها.

كان حامل المنديل يجري فـي السـاحة علـى إيقـاع الضربات المتلاحقة، يتطلع يمينًا ويسارا، للأمام والخلف وقد ارتسمت على وجهه علامات التوجس والفزع حتى تجسـدت مخاوفه في راقص آخر دخل الساحة وأخذ يتعقبه.

كان الراقص الجديد يلبس قناعا ينطق بالقسوة والشر: العينان خاليتان والفم مزموم وخطوط الوجنتين قوسان يلتقيان في تشنج باد. ركض القناع الشرير خلف الراقص حتى لحق به وراح يعترض طريقه:

يرفع ذراعيه في وجهه فيراوغه حامل المنديل، يميل بجذعه يمينًا فيميل الآخر بجذعه يسارا واستمر الرقص – المواجهة يتصاعد على دقات الطبول المتسارعة حتى انسل راقص جديد إلى الساحة واقترب خلسة من حامل المنديل المعقود فسلمه له. علقه حول رقبته وصار يحرك ذراعيه ويدرأ قناع الشر بعيدا. وواصل رقصته وراقصون آخرون يتدفقون إلى الساحة يشاركونه الرقص ويتناوبون حمل المنديل المعقود حول أعناقهم.

وعلى إيقاع دقات قوية بطيئة ومنتظمة راح الراقصون ينشرون أذرعهم في حركة رادعة يواجهون بها قناع الشر.

كانوا يتقدمون وكان يتقهقر ثم توالت الدقات متسارعة متصاعدة حتى انسحب قناع الشر راكضا.

تدفق العبيد إلى مركز الساحة وأخذوا يرقصون رقصا صاخبا منفلتًا ومنتشيا.

وكان سعيد يراقب ذلك كله مأخوذًا ومنبهرا وزاد انبهاره عندما رأى حافظ يقفز إلى الساحة ويشارك العبيد الـرقص، ينشر ذراعيه أمامه ويحرك قدميه وكتفيه وردفيـه بانتظـام على إيقاع الطبول. متى تعلم حافظ أن يرقص هكذا وكيف؟!

مال عليه عمار وصاح في أذنه – لو أنني أصغر سـنا لشاركتهم الرقص لماذا لا تشاركهم؟

شعر سعيد بالدماء تصعد إلى رأسه وتمتم في خجل.

- لا أعرف كيف!

***

(١٠)

حلم سعيد

شعر سعيد أنه يختنق وكان الرجل الذي يركـب علـى كتفيه يلف ساقيه على رقبته ويضـغط ويسـبه ويضـربه. وعندما بدأ الرجل الذي كان له حافران كالدواب يبول ويتبرز تمنى سعيد الموت، ثم استيقظ من نومه.

لم يكن ما رأى إلا كابوسا ومع ذلك فقد لازمه الضـيق وكأن ما حدث في الحلم محنة عاشها ولم يتمكن من التخفف من وطأتها حتى بعد أن نجا منها. ولم يتذكر سعيد إلا بعـد أيام أنه استعاد في المنام مشهدا من حكاية حكاها لـه الولـد محمود وهما يتجولان في شوارع الإسكندرية.

خرج سعيد إلى البحر يجر ساقيه وكأنما انتقل إليهما ذلك الهم الثقيل الذي حمله على كتفيه في الحلم وعاد من الصعيد يجر رجليه كما ذهب. ولكنه الآن كان يعرف أن توجس قلبه كان حدسا بمصيبة يخبؤها اليوم في طياته.

حكى لآمنة ما جرى فبكت ودعت على ريس المركـب الذي يظلم الصيادين وتجبر عليهم. ثم قالـت وهـي تمسـح

دموعها بكفيها "ولكن أم لطيف لابد مـن أن تعمـل علـى مساعدة حافظ فهو ابن أختها وقد تعلق به قلبهـا منـذ كـان رضيعا في الأقمطة. لن تتركهم يلقون به في الأقبية لمجـرد أنه سب ريس المركب أو دفعه بيده في لحظة غضب. مؤكد أنها ستذهب لبنت المحسـن وترجوهـا أن تتوسـط لـدى السلطان، ومن يدري لعل ا يرقق قلب السيدة علياء رحمة بأبي حافظ وأمه وأخوته الذين يعولهم".

كان سعيد شاحب الوجه منكسـر العينـين فحاولـت أن تطمئنه وتخفف عنه، ولكنها حين أطفأت القنـديل وتمـددت على فراشها عادت تبكي فهي تعرف حافظ منذ كان يلثغ في حرف الراء ويقلب مقاطع الكلمات ويمشي وهو يتلفت حوله خوفًا من جنيات البحر. أطعمته مع سعيد وقسمت الرغيـف الواحد بينهما وركضت خلفهما لتأديبهمـا عنـدما تجـاوزا الحدود. تمسك بأحدهما وتضربه فيرتدع الاثنـان مـن ذاق ضربها ومن لم يذقه. ولد شهم وطيب كثيرا ما مازحته قائلة: "لو كانت لي ابنة يا حافظ لزوجتها لك حتى وأن لم تحل في عينيك!" فيضحك "كنت سأستجير بعمـار وأقـول لـه هـل يرضيك أن تزوجني آمنة بابنتها الدميمة".

كانت آمنة تبكي بلا صوت وتظن سعيد مسـتغرقًا فـي النوم.

ولكن سعيد كان مؤرقًا كأمه يتساءل إن كان قد قصر في مساعدة صاحبه "هل أخطأت عندما استجبت لأمـر ريـس المركب؟ هل أخطأنا عندما أرهبنا وعيده وسوطه فعدنا إلـى العمل صاغرين وحافظ أمام عيوننا مقيد بالحبال؟ وما الـذي كان بإمكاننا عمله وقد هددنا ريس المركب بنفس المصير إن تجرأ أي منا عليه ولم يطع أوامره؟ ولماذا استشـاط حـافظ بهذا الشكل وأمسك بتلابيب ريس المركب بدلاً من أن يحدثه بهدوء ويعمل على إقناعه أن معروف الصياد لا يتمارض بل هو مريض فعلاً ولا يستطيع القيام بالعمل؟ ألـم يكـن مـن الأفضل أن يتحامل معروف على نفسه ويشد معنـا الشـباك مادام ريس المركب تعنت وركبه العناد بدلاً مـن أن تتعقـد المسألة وتؤدي إلى مشادة يمسك حافظ بتلابيب ريس المركب دفاعا عن معروف ثم يفقد صوابه ويركض إلى سـلة مـن سلال السمك ويلقي بما فيها في البحر سخطًا واحتجاجا؟"

- هل نمت يا آمنة؟

- لم أنم يا سعيد.

- هل قصرت في مساعدة حافظ؟

- لم يكن بيدك شيء يا سعيد.. هل كان بيدك شيء؟

عادا للصمت وبدا أنهما غفيا ولكن لا آمنة ولا ابنها كانا قادرين على النوم وقد كان يشغلهما نفس السـؤال: "سـعيد وحافظ صديقان منذ الطفولة فكيف يقع مكروه لأحدهما ويقف الآخر مكتوف اليدين؟

هذا ما لا يجوز.. ولكن ما الذي كان بيد سعيد ليفعل ما يجوز؟!

عندما عادت آمنة من عملها في اليوم التالي حكت لسعيد عن أم لطيف: "المسكينة جاءت اليوم إلى المطبخ. وعيناهـا منتفختان من أثر البكاء ثـم ذهبـت إلـى بنـت المحسـن واستعطفتها وقالت إن حافظ أخطأ ولكنه طـائش وصـغير، قالت إن أباه ضرير وأمه مريضة وهو الذي يعـول إخوتـه العشرة. توسلت إليها وقبلت رأسها ويديها واستحلفتها بكـل عزيز أن تتشفع لحافظ لدى السلطان. وعادت أم لطيف أسوأ مما ذهبت بعد أن ردتها بنت المحسن خائبة".

كانت آمنة ساخطة ومتمردة ولكنها دارت ما في قلبهـا عن سعيد فماذا لو انتقل إليه شعورها فأتى عمـلاً متهـورا

فأصابه ما أصاب صاحبه. قضت ليلتها تدعو في صمت على ريس المركب والسلطان وزوجة السلطان " نخدمهم ونشـقى طول اليوم ليملئوا بطونهم ثم نقصدهم في خدمة لن تكفلهم إلا كلمة تعيد لنا روحنا فيقضونها" هذا ما قالته تودد وكانت على حق. فهل يمكن أن يكون البحر أرحم منهم؟ لابد أنه أرحـم فليس للبحر قلب ولا عقل ولا هو من نسل آدم فنعتب عليـه ونلومه ونقول له "لماذا لم ترأف بحالنا يا بحر ألست بشـرا مثلنا؟! ".

" من الطارق في هذه الساعة من الليل؟" تساءلت آمنـة متطيرة وهي تقوم لفتح الباب. كان الطارق شابا أسود مـن عبيد المزارع. سأل عن سعيد فكادت تنكره ولكـن الزائـر وكأنما قرأ ما في خاطرها قال "لا تخافي يا خالة، لا أقصـد شرا، أنا صديقه".

دعته للدخول وأيقظت سعيد وبقيت تغالب النـوم حتـى يذهب الغريب فتستفهم عن سبب زيارته ولكن النوم غلبهـا. وعندما استيقظت في الصباح كان سعيد قد بكر في الخروج إلى الصيد فلم تره ولكنها رأت الكيس القماش الممتلئ بحبات القهوة الخضراء فعرفت أن زائر الليل قد أتى به. تسـاءلت:

"من أين لشاب من عبيد المزارع بالقهوة التي تزرع في عدن؟!".

***

- هل تشربين القهوة معي؟
- أشرب القهوة؟!
- ليست حراما، صدقيني يا أمي في مصر يشربونها وفي اليمن أيضا وفي كل مكان.
- هل أنت متأكدا!
- وا   متأكدا!
- إذن أذوقها.

رشفت على استحياء، فاستغربت المذاق، كان قويا ونفاذًا كالرائحة رشفت رشفة ثانية ثم ثالثة فاستعذبت الطعم رغم المرارة.

ضحكت بمرح من يأتي فعلاً أهوجا.

- لو كانت حراما تكون خطيئتي عليك.

فضحك سعيد:

- يبدو أنها حرام لأنها جعلتك تضحكين كأنك شربت الخمر!

صبت آمنة لنفسها مقدارا ثانيا من القهوة فقال سعيد وهو يبتسم:

- مادمت أحببتها فسأزرع لك شجرة قهوة في البسـتان الذي رأيتيه في الحلم، ما رأيك؟

- ولو علم السلطان؟!

السلطان لا يعلم أن العبيد يشربون القهوة وأن أشجارها المحرمة مزروعة في ستر أشجار الخروب والتمـر هنـدي التي تحميها بجذوعها الكبيرة وظلالها الكثيفة وتـدرأ عنهـا هجمات الجراد والشمس المحرقة والعيون الدخيلة. السـلطان لا يعلم أن عبيده يشربون القهوة ويعدون لخلعه. كان حـافظ قد حدثه عن ذلك فتوجس سعيد فما الذي يملكه عبيد ضعفاء في وجه سلطان يسكن قلعة يحميهـا الحـراس المسـلحون؟ سلطان قوي وشرس يقطع الألسنة ويجب المذاكير ويلقي في الأقبية لمجرد الاشتباه فما الذي يفعله لو تأكد الأمـر لديـه؟ سيحصد الرؤوس كأنها عيدان الذرة وقت القطـاف تجـري الدماء أنهار حتى تلون البحر وتصبغ حتى اللؤلؤ فـي قلـب المحار. قال سعيد ذلك لحافظ ولكن صاحبه كان عنيدا فقال: "ولكننا سنحاول وقد نستطيع.. حاول معنا؟" لم يجبه سعيد؟ لم

يطاوعه لسانه في قول لا نهائية وقاطعة ولجم عقلـه الـنعم الطائشة التي لا يعلم إلا ا وحده ما تجـره وراءهـا مـن مصائب وكان مازال متحيرا يقف بين النعم واللا عندما جاءه زائر الليل يسأله عن قراره جاء وذهب وظل سـعيد يقلـب المسألة في رأسه وكلما قلبها أكثر افتقد حافظ وألـح غيابـه عليه وأنهكته الأفكار وهي تدور في رأسه كدوامة في البحر تتقاذف مركب الصياد الوحيد.

ذهب لزيارة عمار.

- هل جئت لتكتب لي الرسالة يا سعيد؟

- لم أدبر قلما وورقة بعد يا عمار.

- لا تهمل الأمر يا سعيد لأني أريدها أن تصل بسرعة، وما أحوالك يا سعيد؟

- أشعر بالضيق يا عمار. منذ أخذوا حافظ وأنـا بـلا صاحب أقضي المساء وحدي وفي الصباح أذهـب للصـيد متكدرا لأني لم أعد أطيق رؤية ريس المركب. لقد حلمت به يركب على أكتافي ويكاد يخنقني وهو يلـف سـاقيه حـول عنقي.

- غريب!

- الحلم ليس غريبا لأن الولد محمود كان قد حكى لـي عن قصة السندباد البحري الذي التقى شيخًا قعيـدا فحملـه قاصدا المعروف ثم أتضح أن الرجل شيطان له حوافر ظـل يعذبه ويضربه ويجبره على العمل حتى تخلص منه السندباد وأوقعه من على كتفيه وضربه بحجر.

- كيف تخلص منه وهو شيطان؟

- أتى بثمرة كبيرة أفرغها وجففها وملأها بالعنب ولما اختمر سقاه منه فانتشى وارتخت أعضاءه فأسقطه السـندباد من على ظهره وقتله.

- وهل كان للرجل وجه ريس المركب في الحلم؟

- لا كان رجلاً قبيح الوجه وكان يعذبني فعرفـت أنـه ريس المركب.

- ليس ريس المركب من رأيت يـا سـعيد بـل هـو السلطان، السلطان بعينيه!

قالها عمار وانفرجت أساريره بعد أن كان يتابع ما يقوله سعيد مقطبا ومشدودا، واستعاد وجهه عذوبته وقد تبسم الثغر والعينان.

- ولكنك تخلط بين الحكاية والحلم يا عمار. في الحكاية التي قصها على الولد محمود قتل السندباد شيخ البحر بعد أن أسقطه من كتفيه ولكني في الحلم لم أر إلا نفسـي والرجـل على كتفي يضربني ويكاد يخنقني بساقيه.

ورغم ذلك فقد أصر عمار أن حلم سعيد رؤيـا تبشـر بسقوط السلطان.

ساعتها كاد سعيد يفضي لعمار بكل ما في نفسـه. كـاد يسأله المشورة ولكنه أحجم وودعه ومضى وهو يتساءل كيف يكون حلمه رؤيا ببشارة لم ترد فيه؟ هل يذهب مـع العبيـد فيساهم في تحقيق البشارة أم يحكم عقله مادام كل ما حولـه يؤكد أنهم بلا حول ولا قوة والسلطان قابض ومهيمن؟!

عادت الدوامة تدور في رأسه وتنهكه كما ينهكه غيـاب حافظ وحضور ريس المركب الكريه.

جلس سعيد على الشاطئ. كانت السماء صافية مرصعة بآلاف النجوم. راح يتطلع إليها وقد تذكر ما قاله عمـار لـه وهو طفل صغير "هذه النجوم في السماء هي أرواح أحبابنـا الذين ذهبوا، نارها عذاب الفراق ونورهـا شـوق الوصـل والتلاقي" قال له عمار عن السماء رحبة ورحيمة لا تتـرك

إنسانًا وحده في العراء بل تضم الغريب تحت سقفها وتؤنس وحشته بأهلة النجوم، إن نظر إليهم رآهم، وهم يصـاحبونه حتى وهو يمشي وعيناه مثبتتان على الأرض.

فهل يمكن أن يجد محمود بين كل هـذه النجـوم. راح سعيد ينتقل بعينيه من نجم إلى نجم يقول هذا محمود ثم يقول ليس هذا محمود فيرحل إلى نجم آخر ويتطلع فيـه محـدقًا. وحين كاد سعيد يستسلم لليأس ويمضي وجده ولما وجده بكى حتى اختلطت دموعه برذاذ البحر على وجنته.

وأتاه النجم المتلألئ في البعد، جلس بجواره على الرمل الرطب فأمسك سعيد بيده وراح يفضي له بما في قلبه. وقبل أن يذهب محمود وقد أوشك أن يدركهما الصباح سأله سعيد: "ماذا تقول يا محمود.. هل أذهب.. وليكن ما يكون؟".

(١١)

السر المحفوظ

كانت لمليحة قدرة على معرفة التغيرات المفاجئة في الطقس قبل وقوعها. تقول إن الغد سيأتي بالبرق والرعد والسيول فيأتي الغد بالبرق والرعد والسيول: تقول إن ريحا صفراء عاتية ستقتلع الأشجار وتحجب الأرض والسماء فما هي إلاّ ساعات وتغشى الريح الصفراء العيون.

كان الناس يقولون: كيف والسماء كانت صحوا لا ترى العين فيها علامة ولا إشارة؟ يستغربون وتستغرب مليحة استغرابهم لأن الجسد يبصر أكثر مما تبصر العيون. ألا تجفل أبدان الخيول قبل العاصفة؟ كذلك جسدها كانت تسرى فيه الآلام المبرحة تضرب في الرأس كمطرقة الحداد أو تيبس المفاصل فتبدو وكأنها عروق جف منها ماء الحياة.

كانت آمنة تشبه أمها كثيرا. كانت مثلها طويلة القد حسنة القوام، صبيحة، بياض بشرتها تضرب فيه صفرة رقراقة وصافية، ومثلها كان شعرها أسود طويلاً تضفره في جديلتين. ولكن أحدا لم يعرف عن آمنة ولا هي عرفت في

نفسها تلك القدرة التي كانت لأمها ولذلك فقد حارت أمام قلبها وقد تمكن منه اليقين بأن شيئًا ما يسري آتيا. تقول لقلبها: ما هو؟ خير أم شر؟! لا يفصح وإن بقى عنيدا في اليقين.

كذبت آمنة قلبها وواصلت الحياة تغربل الطحـين قبـل شروق الشمس وتعجنه وتتركه يختمر وعندما تبدأ النساء في التوافد إلى المطبخ تشرع في تكوير قطع العجـين وفردهـا وإدخالها إلى النار لتنضج. وفي الليل تتحـدث مـع سـعيد وتغرورق عيناها بالدموع لذكر حافظ ثم تأوي إلى فراشـها فيقول لها قلبها إن شاء ما يأتي، فتكذبه.

في تلك الليلة لم يشغل آمنة الحديث مع قلبهـا إذ كانـت تفكر فيما همست لها به تودد في المطبخ:

- ولو عرفت أم لطيف؟

- لن تعرف، وحتى أن عرفت ستكتم الخبر كأنهـا لـم تسمع به.

- أنها تخاف يا تودد وهي ريسة المطبخ، ولو انكشـف فعلنا عاقبونا جميعا ولكن عقابها هـي يكـون أشـد لأنهـا المسئولة عن الوارد إلى المطبخ وما يدور فيه.

طمأنتها تودد وأكدت أن أم لطيف ليست عقبة أمام ما ينوونه.

- اتركي الأمر لي.. إن وافقت أتصرف.

كادت آمنة تعيد على تودد ما سبق وعبرت عنه من مخاوف ولكنها قالت:

- تصرفي يا تودد وا   يستر!

بعد يومين وعلى مسمع من كل نساء المطبخ. قالت تودد لأم لطيف:

- وا   يا أم لطيف إن آمنة مظلومة أكثر منا جميعا فما تقوم به من خبيز يوم الخميس يكفي لإنهاك عشر نساء. لماذا لا تطلبين من بنت المحسن أن تخصص امرأة أو اثنتين لمساعدتها.

تنهدت أم لطيف:

- قلت لها أكثر من مرة ورفضت.

- والحل؟

- الحل في يد الحلال.

سكتت تودد وانصرفت إلى عملها وكأنها اقتنعت بإجابة أم لطيف.

في اليوم التالي عادت للحديث في نفس الموضوع:
- جاءتني فكرة يا أم لطيف. بدلاً من أن تنزل آمنة التلة عصر الأربعاء وتعود تصعدها قبل فجر الخميس فتمشي كل تلك المسافة وأمامها عمل مضني، تقضي ليلتها في المطـبخ فتنام كفايتها ويتسع وقتها لخبيز الخميس المضاعف.
تدخلت امرأة في الحديث:
- مالك يا تودد تريدين تكحيلها فتعميها، وما ذنب آمنـة لتنام وحدها في هذا المكان الموحش فـي الليـل؟! وا لـو دفعوا لي مال قارون ما فعلت.. ألا يمكـن أن يطلـع لـي عفريت؟!
ضحكت تودد:
- ما عفريت إلا بني آدم.. على أي حال مـا أردت إلا مساعدة آمنة وأن كانت الفكرة لا تروقها فـلا داعـي. وإن كانت تروقها وتخشى النوم وحدها أبقى أنا معها ليل الأربعاء من كل أسبوع أسليها وأؤنس وحشتها، ما رأيك يا آمنة؟
كانت آمنة تتطلع إلى تودد مأخوذة بدهائها الذي مكنهـا من طرح الأمر بالشكل الذي يوصلها لما أرادته. وافقـت أم لطيف على كلام تودد الذي بدا لها ولكل نساء المطـبخ أنـه

عفوي ابن ساعته، وأن اقتراحها بالبقاء في المطبخ مع آمنـة ليلة في الأسبوع إيثارا وعطفًا ومحبة.

كادت آمنة تفشي السر لسعيد ثم عدلت وقد تذكرت العهد الذي قطعته على نفسها أمام تودد فأودعت السـر صـندوقًا أغلقته بقفل من حديد وواصلت حياتها، تصعد التلة في عتمة السحر وتهبط منها والشمس مائلة للغروب، هكذا في خمسـة أيام من أيام الأسبوع وفي اليوم السادس تصعد وتؤدي عملها فإذا ما انقضى اليوم وذهبت النساء تبقى مع تودد تتحـدثان كأن الوقت أمامهما طريق ممتد لا يخصهما أيـن ينتهـي أو يقود ولا تريدان منه سوى الانتظار على إحدى جانبيه حتـى يطلع عليهما الصباح.

وعندما يتوغل الليل ويستغرق أهل البيت العـالي فـي النوم تشمر المرأتان عن سواعدهما وتبـدآن فـي العمـل، تجمعان ما اختصرته آمنة من طحين على مدى الأيام السبعة لعجنه وخبزه. وما أن تنضج الأرغفة حتى تقومان بصفها في سلتين كبيرتين تدسان في إحداهما الورقة المطوية التي أتـت بها تودد مخبأة في صدرها. ثم تحمل كل منهما سـلة علـى رأسها وتسيران في ستر الليل إلى المكـان المعلـوم حيـث

تلتقيان بالشاب الذي تتعرفان عليه بطوله الفـارع وخطوتـه العرجاء وعبارته الهامسة: "صباح الخيـر" تجيبـان بـنفس الصوت الهامس: "صباح النور" يحمل السلتين ويذهب بهمـا لتهريبيهما إلى أقبية المساجين.

وتعود آمنة وتودد كما ذهبتا شبحين نحيلين يتحركان في سكون الظلام ولا تبادلان الكلام إلا بعد أن تصلا إلى أمـان المطبخ. تضعان ركوة قهوة التي تساعدهما علـى مواصـلة العمل في الصباح الوشيك بعد أن أمضيتا الليل بـلا نـوم، تتحدثان في مواضيع شتى ولكن أيا منهما لا تشير إلـى مـا قامتا به وكأنه لم يحدث أو حدث لسواهما فلم تعرفا به.

لا آمنة أفشت سرها لسعيد ولا سعيد أفشى لآمنة سـره الذي كتمته أوراق الموز العريضة وجذوعها المتقاربة حيث كان يلتقي مع شاب من شباب العبيد. يملي الشاب على سعيد الرسالة فينهمك سعيد في كتابتها بخط دقيق وواضح، يطويها الشاب بعناية ويخبئها ثم يحملها إلى امرأة من نساء المزارع توصلها بدورها إلى تودد.

ثم ذهب سعيد لمقابلة عمار وقد قرر مفاتحته في الأمر. قال لزميله:

"قد يقبل وقد يرفض ولكنه عمار في الحالتين لن يشي بنا لأحد".

قالها له بلا مواراة:

- نعد العدة لخلع السلطان.

تطلع إليه عمار وظل صامتًا.

- ستقول سلوك طائش لا يجر سوى المصائب لكننا نعد العدة وا المعين.

- تقول نحن يا سعيد، فمن أنتم؟

- عبيد المزارع وبعض الصيادين.

- العبيد يعدون لخلع السلطان؟

- نعم وهم يريدونك معهم.

ضحك عمار ضحكة خافتة بدت كالأنين.

- وما الذي يقدمه عبد مثلي لا تحمله ساقاه.

- نريدك أن تصف لنا القلعـة مـن الـداخل: قاعاتهـا وممراتها ومداخلها ومخارجها، مخـدع السـلطان وقاعـة جلوسه..

هل تستطيع ذلك يا عمار؟

- هذا أمر سهل يا سعيد ولكن هل تقتحمـون القلعـة، وكيف تقتحمونها والحراس على الأبواب؟

- سندبر الأمر يا عمار. كل ما نطلبـه منـك هـو أن تصف لنا القلعة من الداخل وبوابات الأقبية. عددها وأماكنها وعدد الحراس الواقفين بكل بوابة.

- هل تقتحمون أقبية المساجين أيضا؟

- نعم سنفعل يا عمار.

- بإمكاني أن أسرق لكم مفاتيح الأقبية.

قالها عمار بهدوء وثقة حتى تشكك سـعيد فـي صـفاء عقله.

- كيف؟

- حامل المفاتيح مرجان، وهو رجـل نحيـل يشـخر بصوت عال جدا ويتقلب كثيرا وهو نائم، ينام في نفس القاعة التي أنام فيها.

- وما دخل ذلك بالمفاتيح يا عمار؟

- أنه يعلق المفاتيح في طوق محيط بخصره وعندما ينام يخلع الطوق ويضعه تحت فرشته، قلت لك أنه يتقلب كثيـرا

فيسهل سحب طوق المفاتيح من تحته ولأنه يشخر فلن ينتبه لو أحدثت المفاتيح رنينًا وأنا أسحبها.

- ولكن الآخرين قد ينتبهون.

- أنهم يشقون طول اليوم فينامون في الليل كأنهم قتلى.

لو أمسكوا بك وأنت تسرق المفاتيح سينزلون بك عقابا شديدا يا عمار وقد.. قد يقتلونك.

- لا تخف يا سعيد.

أخذ عمار يصف القلعة لسعيد.. أتى بفرع شجرة وراح يرسم على الرمال. رسم القاعات والممرات والأبواب ثم قال وهو يحرك العصا في يده ويمحو ما رسمه:

- أعد لي ما قلته، أعده بالكلام أولاً ثم كرره وأنت ترسم على الرمال لأتأكد أنه ثبت في رأسك.

غادره سعيد بعد أن اتفق معه على موعد من الليل.

- سيكون معي من يساعدنا. نأخذ طبع المفاتيح على الشمع ثم تحملها راجعا لتعيدها حيث كانت.

بقى عمار جالسا في مكانه. لم يكن هادئًا الآن كما كان وهو يتحدث مع سعيد بل بدا لنفسه كالمحموم يعلو صدره

ويهبط فيسمع صوت أنفاسه. هل هو الخوف أم شيء يشبهه؟ هكذا شعر يوم عرف أن مليحة في المخاض.

ركض كالممسوس حتى وصل إلـى حـي الصـيادين وتوارى بين الأشجار وجلس ينتظر وهـو يتصـبب عرقًـا وروحه تنتفض كأنما تعلقت بخيط يجذبها للموت أو للحيـاة حتى رآهم يخرجون من بيتها بالبشارة فبكـى وصـلى ، وكانت صلاته كصلاة النصارى وهو في مكانه لا يتحـرك لأن جسده كان واهنًا لا يقوى على القيام أو الركوع.

ولما جاء سعيد وقال: "نعد لخلع السلطان" اسـتمع إليـه بهدوء كأن الخبر عادي أو كأن ذلك الكلاب الجحود، بمركوبه ونسائه وقلعته، لا يجثم على صدره – كيف لرجل أن يحمل على صدره قلعة من حديد وحجر؟! – ولكنه حملهـا علـى صدره وعاش، وأحب مليحة ذات الضفيرتين وطابع الحسـن ثم ذهبت مليحة، وعاش.

العبيد يريدون خلع السلطان فهل يقف ا إلـى جـانبهم فيرى عمار نفسه قبل موته طليقًا من سجنه الذي طال حتـى ترادف مع العمر أم أن ا كتب في كتابه أن يكـون العبيـد

معذبين في الأرض مستضعفين فيها؟! هل ينصـرهم ا أم يتركهم؟

انتحب عمار وهو يتوجه إلى ا بالدعاء وظـل يبكـي حتى تذكر حلم سعيد فتمتم "إنها بشارة" مسح دموعـه وقـام متكئًا على عصاه وسار في اتجاه القلعة التي بدا له بنيانهـا الحجري الداكن وجودا شبحيا زائلاً كالكوابيس كرر لنفسـه بصوت مسموع: "لن يتركنا ا .. لا يمكن أن يتركنا.. الحمد

أنني تأخرت في شراء الطير الزاجل.. سأنتظر حتى نخلع السلطان ثم أكتب لأمي الرسالة وأبشرها".

(١٢)

السراج

كان السر يتوغل.. مع الصيادين في البحر، مع العبيـد مع المزارع، مع البحارة في رحلاتهم البعيدة، مـع ذاكـرة الشيوخ المقعدين بأبواب الدور، ومع النسـاء وهـن يغنـين تهنينات النوم للصغار.

كان السر يتوغل وهو محفوظ في القلوب، مقفل عليـه ككنوز الأغنياء إلى أن حانت الساعة فأدار كل فـي القفـل مفتاحه وحمل سراجه بيمينه ومضى مع الآخرين.

الأولاد والبنات، الرجال والنسـاء، المسـنون تسـندهم عصيهم والمقعدون تحملهم أكتاف القادرين، والرضع علـى صدور الأمهات، عبيـد المـزارع والصـيادون والبحـارة والغواصون والنجارون والحدادون والبناؤون أطلقوا طيورهم في اتجاه القلعة وتبعوها وفي أيديهم القناديل.

آلاف القناديل تسطع في العتمة وتشق السـكك الـوعرة المتعرجة، وتصعد. يشاهدها الحراس فـي أعلـى الأبـراج ويحدقون متشككين في عقولهم: برق يخطف الأبصار! برق

على غير المعتاد من البروق يشق الأرض وليس السـماء!. برق يسري صاعدا في اتجاههم. كـانوا يتسـاءلون عنـدما داهمتهم أسراب الطيور فبدأوا في إطلاق النار.

واصل الناس الصعود إلى أن وصلوا الأقبيـة فـأعملوا المفاتيح في الأقفال والمناكب في الأبـواب والفئـوس فـي الجدران. انفتحت الأقبية، هللوا، تقدموا، تراجعـوا. غشـيت عيونهم عتمة لها رائحة القبور، زعزعت أحشاءهم رطوبتها المعتقة.

ثم أتت من جوف الظلام الطيور، مندفعة كأنها عميـاء، ولم تكن، طيور نحيلة راجفة تساقط ريشها وتطير. توزعت قلوبهم الرهبة والوجل وفرح حيي وهم يرفعون قناديلهم عاليا ليصنعوا قوسا من الضوء لبشر الأقبية الذين تـدفقوا خلـف الطيور.

واصلوا الصعود وطيور كثيرة تتساقط مخضبة بـدمائها ينحني الصاعدون عليها ويحملونها على رؤوسهم ويكملون.. عدوهم أمامهم: السلطان في القلعة والحراس بالبواريد علـى الأسوار. يتقدمون حتى يضربون طوقهم ويطرقون بالقبضات

والمناكب والأقدام والحديـد والأخشـاب والحجـر، قلعـة السلطان.

عدوهم أمامهم، وخلفهم بحرهم اليومي الأليف فكيـف؟! العدو أمامهم يواجهونه ويقدرون، العدو وراءهم يقصف من بوارجه فتتساقط الأجساد وتنطفئ القناديل وتشتعل النيـران تحاصر الحياة وهي تركض للإبقاء على ما تبقى من حياة في الحياة حتى سكن الفضاء صراخ مكتوم كتعاقب وهج النـار وعتمة الليل على عيون الراكضين من الموت. "لمـاذا لـم يحسبوا حسابا للإنجليز،؟.. لماذا لم ينتبه وينـبههم إلـى أن الإنجليز سيتدخلون لحماية السلطان؟".

كان السؤال في قلب سعيد جمرة تعذبه وهـو يـركض بحثًا عن عمار بين آلاف الهاربين من القصف. "لابد أن يجد عمار، لابد أن يجده ليحمله على كتفيه وينـزل بـه التلـة.. وآمنة.. أين.. " لم يكتمل السؤال إذ فاجأتـه القذيفـة فمـال جذعه وسقط بالطائر الذي كان يحمله فوق رأسه.

***

شاهدت آمنة كل شيء.. حفارو القبور وهـم يعملـون معاولهم ويكدسون التراب تلالاً على الجانبين والشق الغـائر

في بطن الأرض.. والحراس يهبطون التلة وهـم يـدفعون أمامهم العربات المستخدمة في نقل التراب والذبائح مكدسـة بالجثث.

آمنة شاهدت كل شيء وهي تجلس في ظـل مصـلوب توسمت فيه شبها من سعيد، لم يكن سعيد وكانـت تعـرف ولكنها جلست بلا حراك ثلاثة أيام بلياليها حتى أنزل الحراس جثته فحملته.

قرفصت وأفسحت المدى بين فخذيها وأشرعت ذراعيها لتسع الجسد كله ولم تسعه فبقيت الساقان مثنيتـين والـذراع متهدلة فمالت عليه بوجهها ورأسها وجذعها لتحتوي ما فاض منه.

***

آمنة تصاحب النجوم، "نورها شوق الوصل والتلاقـي. ونارها عذاب الفراق." هذا ما كان يقوله عمار،

لم تعد تبكي فقد جفت من عينيها الدموع. ولم تعد تذهب لتخبز في مطبخ السلطان، ولو أرادت لما أطاعتها أناملها.

تقضي نهارها في الانتظار فإذا ما سجى الليـل وأتـت النجوم تحدثت إليها، هذا النجم سعيد، وذاك حـافظ، وذلـك

عمار، وتلك تودد، والنجم البعيد هناك محمود. تحدث آمنـة كل نجم على حدة ثم تحدثها مجتمعة، تعيد عليها الحكاية من أولها: "في البدء كنت أخاف البحر.. كنت صغيرة خضـراء أجهل الحياة.. ألثغ في الكلام ولا أخاف إلا البحر.. ولم أكن أعرف أنه.." تحكي ولا تتوقف إلا لكي تتأكد أنهم يتـابعون "هل تسمعني يا سعيد؟"، "أليس ذلك ما حدث يا عمـار"، "ألا توافقينني يا تودد"؟، "وأنت يا حافظ ماذا تقول؟"، "ألم تقل لي أن ذلك ما حدث في الإسكندرية يـا محمـود؟".. وتواصـل الحكاية.

تمت

تجربتي في الكتابة

أكتب لأني أحب الكتابة، أقصد أنني أحبها بشكل يجعل السؤال "لماذا" يبدو غريبا وغير مفهوم.

ومع ذلك فأنا أيضا أشعر بالخوف من الموت الذي يتربص، وما أعنيه هنا ليس فقط الموت في نهاية المطاف ولكن أيضا الموت بأقنعته العديدة في الأركان والزوايا، في البيت والشارع والمدرسة، أعني الوأد واغتيال الإمكانية.

أنا امرأة عربية ومواطن من العالم الثالث وتراثي في الحالتين تراث الموءودة، أعي هذه الحقيقة حتى العظم مني وأخافها إلى حد الكتابة عن نفسي وعن آخرين أشعر أنني مثلهم أو أنهم مثلي.

ولدت عام ١٩٤٦ في بيت يقع على النيل في جزيرة منيل الروضة، وقضيت طفولتي المبكرة في شقة بنفس المنطقة تطل شرفتها على كوبري عباس الذي فتحته قوات الشرطة، قبل ولادتي بثلاثة أشهر، على الطلبة المتظاهرين فحاصرتهم عليه بين نيرانها والماء.

ألحقني أهلي بمدرسة فرنسية حيث معلمات يدعون مدام ميشيل ومدموازيل دنيز ومدام رازوموفسكي وتلميذات يحملن

أسماء فرانسواز وماريون وميراى وإنجريد. وكنا نحن الفاطمات نعامل على أننا أقل، لم يقلْ ذلك أبدا في كلمات ولكنه كان يسري في المكان كالهواء الذي نستنشقه دون أن نراه أو نعي حتى وجوده.

كنت في العاشرة حين أعلن عبد الناصر تأميم القنال، أذكر بحة الصوت وإيقاع الكلمات كأنما سمعتها للتو من ذلك المذياع الخشبي في القاعة البحرية في بيت أهلي بالمنيل، كان الصوت يفسح للطفلة المنصتة أرضا تخطو عليها مخلفة وراءها العيون التي تتعالى وتزدري.

في تلك الفترة، أو ربما بعدها بقليل، بدأت الكتابة، كتبت قصائد ركيكة مكسرة الأوزان وقصصا ساذجة تترجم الأفكار إلى شخصيات وتصنع أحداثًا من مواقف ذهنية، وقرأت الصالح والطالح مما أتيح لي: نصوصا مترجمة لديكنز والأختين برونتي وأجاثا كريستي وآرثر كونان دويل ونصوصا عربية لنجيب محفوظ وجورجي زيدان ويوسف السباعي وإحسان عبد القدوس، قرأت بنهم واستمتاع وبلا أدنى تمييز بين قيمة نص وآخر.

كنت أشعر بالانبهار أمام قدرة الإنسان على إنجاز كتاب أو لوحة وكنت أتطلع إلى أمي بإعجاب شديد إذ كانت قبـل زواجها قد كتبت بعض قصائد (تترنم بأبيات منها أو تغنيهـا وهي تحميني) ورسمت لوحات زيتية مازالت معلقـة علـى جدران بيتنا في المنيل، ولما تسلل إلي السـؤال مـا الـذي حدث.. لماذا توقفت؟! ارتبكت.

وأنا طالبة في المرحلة الثانوية دعت المدرسة محمـود تيمور مرة وبنت الشاطئ مرة، استمعنا إلـى حـديث كـل وحاورناه، والتقيت مصادفة في إحدى مكتبات القاهرة بالعقاد فصافحته وهو طبعا لا يعرفني، وبدت لي تلك اللقاءات مثيرة وباهرة، ليس لأنني كنت معجبة بهذا الكاتب أو تلك الكاتبـة تحديدا ولكن لأن فعل الكتابة كان يضفي هالة على صـاحبها فلا أملك – في تلك السن – إلا التوقف مأخوذة.

في السابعة عشرة من عمري التحقـت بكليـة الآداب، جامعة القاهرة، واخترت أن أدرس الأدب الإنجليزي، وبقدر ما أحببت النصوص الكبيرة المقررة وغير المقررة بقدر مـا أرهقني ضوؤها الكاشف لضآلة إمكانياتي، ثم وقع الحـادث المؤسف الذي حسم الأمر لسنوات طوال تالية: قرأت قصص

تشيكوف القصيرة، وكأنما سقط حجر علي أو دهمتني سيارة فتركتني معوقة الحركة، وجدت أنه من المعيب أن أسمى ما أكتبه قصصا، وأنه لا يصح ولا يجوز أن أواصل، قـررت التوقف، وجاء قراري قاطعا كمقصلة تلح الكتابـة فأقمعهـا، أكتب صفحات وأمزقها وأكرر على نفسي: لست كاتبة فلماذا سلوك الأغبياء؟!

شاركت عام ١٩٦٩ في مؤتمر الأدباء الشبان بالزقازيق، وكان زملائي على قدر من الرحابة فاعتبروني واحدة منهم، كان بهاء طاهر وإبراهيم أصلان ويحيى الطـاهر عبـد ا وعبد الحكيم قاسم وغالب هلسا وإبراهيم مبـروك وغيـرهم ممن حضروا المؤتمر قد قدموا بشائر تشي بموهبتهم ولم أكن قد قدمت شيئًا تقنعني قيمته.

وليت ظهري للكتابة وأنكرتها وانهمكت فـي الدراسـة الأكاديمية، أعددت الماجستير والدكتوراه وأنجـزت بعـض الدراسات النقدية.

في عام ١٩٨٠، على فراش النقاهة بعد أزمـة صـحية ممتدة أمسكت القلم وكتبت "عندما غادرت طفولتي وفتحـت المنديل المعقود الذي تركته لي أمي وعمتي وجدت بداخلـه

هزيمتها، بكيت ولكني بعد بكاء وتفكير أيضا ألقيت بالمنديل وسرت، كنت غاضبة. عدت للكتابة عندما اصطدمت بالسؤال: "ماذا لو أن الموت داهمني؟" ساعتها قررت أنني سأكتب لكي أترك شيئًا في منديلي المعقود وأيضا لأنني انتبهت – وكنت في الرابعة والثلاثين من عمري – أن القبول بالنسبي أكثر حكمة من التعلق بالمطلق وأن الوقت قد حان للتحرر من ذلك الشعور بأن علي أن آتي بما لم يأت به الأوائل أو أدير ظهري خوفًا وكبرياء.

بدأت في مشروع سيرة ذاتية، كتبت صفحات تغطي تجربتي الحياتية من سنة ١٩٤٦ إلى سنة ١٩٥٦ ثم اكتشفت أن الخيوط التي شكلت وجدان الطفلة وتلك التي نسجت الطفلة وتلك التي نسجت تاريخ تلك الفترة أكثر تداخلاً وحبكة مما أستطيع كتابته، وجدتني أتعثر في كتابة العلاقة بين خاص وعام متداخلين متشابكين إلى حد يصعب معه معرفة أحدهما من الآخر. وخفت من السقوط في الخطابية أو الغنائية فتوقفت عجزا وخوفًا، وقررت أنني بحاجة إلى "ورشة" أتدرب فيها وأتعلم. وكانت كتابة "الرحلة: أيام طالبة

مصرية في أمريكا" هي الورشة التي أقبلت عليهـا واعيـة صفتها كورشة تأهيل.

كانت مادة "الرحلة" جزءا من سيرتي الذاتية وإن لم تكن تطرح أية صعوبات في فهمها والتعبير عنها بـدت الكتابـة ممكنة، وكنت أرغب في تقديم شهادة على رحلتي الأمريكية تختلف وتتواصل مع مجموعة من النصوص التي كتبها أدباء مصريون ذهبوا إلى الغرب طلابا للعلم وسجلوا في الغالـب الأعم انبهارهم بالأنوار الإمبريالية، كانت تجربتـي امتـدادا لتجاربهم وكانت أيضا تختلف لأنني ذهبت بتشكك وخـوف ومرارة من الآخر الإمبريالي، كنت أنتمي لجيل مختلف ولي موقف أيديولوجي مغاير ثم أنني امرأة، كانت العـين التـي ترى والوعي الذي يصـنف مفـردات التجربـة وينتظمهـا يفرضان ضرورات تخصهما.

كانت "الرحلة" هي أول نص طويل أكمله، كنت أكتـب يوميا بين صفحتين وخمس صفحات، يستغرقني العمل مـن التاسعة صباحا حتى الثانية ظهرا، تعلمت في هذه الورشـة اليومية إنجاز مشروع ممتد، اكتسبت "النفس الطويل" إن جاز التعبير، تعلمت كيف أنتقل من الانهماك فـي تقـديم مشـهد

بتفاصيله إلى الإطار الكلي الذي ينتظم المشـاهد ويربطهـا بعضها ببعض، وتعلمت أيضا النقلات الزمانية التي تجعـل من مشهد يدوم دقائق يستغرق صفحات، وواقع يدوم سنوات يكتب في سطور معدودة واجتهدت عبر إعادة مـا أكتبـه – مرات عديدة تصل إلى العشرة أحيانًا – في إيجـاد علاقـة معقولة بين الاقتصاد والتكثيف والعمق من ناحيـة وصـفاء التوصيل من ناحية أخرى، ثم أنني انتبهـت وأنـا أكتـب "الرحلة" للمرة الأولى على ما أظن، إلـى القيمـة العظيمـة للتشبيه كأداة بلاغية.

أعتقد أن كتابة "الرحلة" أكسبتني ثقة في النفس وخففـت من وطأة السؤال: "هل أصلح للكتابة؟" باختصار اكتسبت شيئًا من التصالح مع نفسي ككاتبة ممكنة. كان في ذلك نهاية عام ١٩٨١.

بعد حوالي ثلاثة أشهر بدأت في كتابة نص روائي طويل هو الذي نشر بعد ذلك بعنوان "حجر دافـئ" (بفـتح الحـاء والجيم) لم يكن مشروعي الواعي هو الكتابة عن شخصـيات أساسا بل عن حقبة ومكان، كـان مشـروعي هـو مصـر السبعينيات: التقاط شيء من ملامح المكان في حقبة زمانيـة

معينة (انتبه الآن إلى أن التـاريخ بمعنـى تسـجيل الواقـع التاريخي كان دائما هاجسا يشغلني) وبسبب طبيعة المشروع جاء الأسلوب وصفيا، ملجما في الغالب، محايدا في الظاهر، بعيدا كل البعد عن التعبير "الإنشائي".

"حجر دافئ" هي أول تجربة روائية لي كانت "الرحلـة" نصا سرديا طويلاً ولكنها كانـت أنتاجـا لتجربـة عشـتها ولشخوص عرفتهم، تدخلت طبعا في ترتيب المادة والتعليـق عليها ضمنًا أو صراحة ولكني لم أبتدع أية واقعة أو شخصية مما ورد فيها أما في "حجر دافئ" فكانت المرة الأولى التـي أنتج فيها عالما بسماته المكانية والزمانية وأسكنه شخصـيات تحمل ملامحه وتتحرك في إطاره، وأعتقد أن ذلك لـم يكـن سهلاً بل كان محفوفًا بالمخاطر والعثرات التي لم أوفق فـي كثير من الأحيان – على ما أظن – في تجاوزها.

في عام ١٩٧٦ كانت قد ألحت على تجربة روائية كتبت بعض مشاهد منها ثم تصادف أن قرأت نصا روائيا عظيمـا لأحد كتاب أمريكا اللاتينية فما كـان منـي إلا أن مزقـت الصفحات التي كتبتها، والغريب أنني بعد تسع سنوات مـن ذلك التاريخ، وتحديدا في مايو ١٩٨٥، عندما انتهيـت مـن

كتابة الفصل الأخير من "حجر دافئ" وجدت المشـهد الأول من مشاهد تلك الرواية التي كنت قد مزقتها ينبعـث أمـامي كاملاً وبحذافيره: نفس الشخصيات، الأسماء نفسها، الحـوار بعينه، أعترف أنني فرحت، ورحت أكرر لنفسي "لعلي كاتبة في نهاية الأمر.. فلا شيء يلح هكذا إلا كان أصيلاً.."

هكذا بدأت في كتابة رواية "خديجة وسوسن" واستغرقني إنجازها ثلاثة أعوام إذ لم يكن متاحا لي أن أكتـب إلا فـي العطلة الصيفية، وإن حاولت في أثناء العام الدراسي لم تأت محاولتي إلا بالتوتر والاكتئاب لأن طبيعة عملـي الجـامعي تستهلك جزءا كبيرا من طاقتي الذهنية والبدنية.

أحتاج، لكتابة نص طويل، مساحة من الوقت المتاح كما أحتاج الشعور بأن المساحة مفتوحة أمامي لن يقطعها طارئ. لن أقدر حتى الآن على اقتطاع نصف يوم من هنا وربع يوم من هناك لكتابة رواية، أما بالنسبة للقصة القصيرة فـالأمر يختلف: تنبت الفكرة أو الصورة في رأسي هكذا فجأة أو أرى مشهدا في الحياة يقول لي اكتبيني، وفي الحالتين لا يتطلـب نقل ذلك على الورق زمنًا طويلاً، قد يكون يوما أو عدة أيام.

"خديجة وسوسن" رواية مـن جـزءين، الجـزء الأول وترويه سوسن، الابنة كتبت الجزء الخـاص بخديجـة فـي سهولة ويسر استغربتهما، وكنت أحيانًا أكتب عشر صفحات في الجلسة الصباحية الواحدة ولم أقم بتعديلات تـذكر فيمـا كتبت، أما الجزء الخاص بسوسن فقد كانـت كتابتـه علـى العكس من ذلك إذ أعدت كتابة فصول كاملة منه ثلاثة مرات في عامين متتالين. كانت تجربة سوسن، كما أراهـا، هـي تجربة جيل من الفتيات، أصغر مني ببضع سنوات، عايشـته عن قرب في الجامعة في السـبعينيات، لـم تكـن التجربـة تجربتي وإن كان التماس قائما إلى حد التماثل أحيانًا، والألـم حاضرا إلى حد إرباك الكتابة والزج بها إلى سكك العاطفيـة حينًا والإشفاق على الذات حينًا والصوت المنفعـل المـدافع حينًا:

أكتب ثم أتوقف وأعدل وأحذف ثم أقرأ ما كتبت فأجـده رديئًا فأضعه جانبا وأبدأ من جديد، وأخيرا كتبـت سوسـن ولكن الحق أيضا أنني لـم أكتبهـا لأن إحـاطتي بتجربـة شخصيات عديدة يمثلها هذا النموذج الإنساني بقيـت أعمـق وأثرى مما قدمته على الورق، وفي ظني أن الألم، وقدر منه

ضروري لا شك في الكتابة، إذا زاد وفاض أربك النص وخرب فيه، ولأنني أردت أن أحكم الألم وجدت نفسي أعيد ما أكتب المرة تلو المرة، وجاءت شخصية سوسن.. رغم ذلك اختزالاً لواقع أغنى.

"سراج" وهي آخر ما أنجزت من نصوص (كتبتها في شهري يوليه وأغسطس ١٩٨٩) تدور أحداثها في نهاية القرن التاسع عشر. والنص الذي أكتبه حاليا يحكي عن شخصيات عاشت في أواخر القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر، لماذا العودة للتاريخ؟ سؤال طرحته على نفسي ولم أجد له إجابة صريحة، هل أحتمي بالتاريخ على ما فيه من ألم، من واقع تستريح النفس منه ولا تملك التعامل الهادئ معه؟ هل أبحث فيه عن سند، عن فهم، عن إجابات؟ هل هو هروب أم مواجهة؟

كثيرا ما أتمنى التفرغ للكتابة، وكثيرا ما أفكر في ترك عملي بالجامعة ولكن لا أجرؤ فأبدو لنفسي كامرأة ترهقها حياتها الزوجية وأولادها العشرة وتراودها كل يوم فكرة تركهم والذهاب ولا تملك، ليس فقط لأنهم يشكلون ثوابت حياتها ولكن أيضا لأنها تحتاجهم وتحبهم، أضج بالجامعة

وأحيانًا أكرهها ولكني أنتمي إليها، فمن سنوات عمري الست والأربعين قضيت فيها تسعا وعشرين سنة أعلم فيها وأتعلم.

والجامعة نظام صارم يحكمك أكثر مما تحكم فيه. تعـد للماجستير والدكتوراه ثم تعد بحثًا يعقبه بحـث يليـه بحـث تنجزه أو تشرف عليه وتساعد صاحبه على إنجازه، وتجربة كفكاوية تتكرر مع مطلع الصيف كل عام حيث يتعين عليـك أن تصحح مئات من كراسات الإجابة تضم آلاف الصـفحات التي تعكس في الغالب خيبة نظام تعليمي وعجزك الفـردي مهما بلغت من اجتهاد أو عطاء عن مواجهة هذا النظام.

ولكن الجامعة، رغم ذلك، تمنحني ما لا استبدل به شيئًا، تمنحني قاعة الدرس ولحظات مدهشـة يمتـد فيهـا جسـر التواصل بين الطلاب وبيني وفي اللقاء تأنس الروح وتطلـق نوارسها تعلن لقاء اليابسة بالماء، أعلمهم شيئًا وأتعلـم منـه أشياء. فمن اليابسة ومن الماء؟!

ثم أن الجامعة تمنحني زهو الأم يوم عرس الولـد – أو البنت – يوم يناقش رسالة الماجستير أو الدكتوراه الذي تقدم بها وأشرفت عليها. أرى الولد متألقًا بعلمه فتستطيل قـامتي

كأنني جدة تستقبل ولادة الحفيد ويغمرها الفرح وهي تـرى الحياة تتجلى.

هذا تعطيه الجامع، أعترف، ولكنها تجور على الكتابـة وتقتطع من حقها بقسوة لا تـرحم، وأعـيش بـين الكتابـة والجامعة ممزقة كزوج الاثنتين.

قاعة الدرس وإنجاز طالبة متميزة علمتها في البدء ثـم نمت وفاتتني وتجاوزت تبدد وحشة الواقع ولكن الكتابة تبدد الوحشة أكثر.

الكتابة بالنسبة لي علاقة بأمور ثلاثة: علاقـة بـالواقع المحيط، وعلاقة باللغة ومن ورائها التراث الثقافي والأدبـي المتجسدين فيها ومـن خلالهـا، وعلاقـة بحرفـة الكتابـة والخبرات المكتسبة في الورشة اليومية.

العلاقة الأولى تبدأ بالذات والمفـردات التـي تخصـها وتعطيها ملامحها المميزة: بالنسبة لي هي: نهر ونخلة، وقبر الملك قديم ينشر حلم الخلود ويطوي أعمار آلاف المسخرين لبنائه، وجامعة - مسجد، وأزقة تتفرع من حولـه وتلتقـي بمقابر يسكنها بشر، وعصفور ميت، وعصا، ورجل أحبـه، وطفل تكون في البدء بأحشائي، وصوت امرأة تغني، ووردة،

أتحدث عن القاهرة التي ولدت فيها ومصر التي أنـا منهـا، أتحدث عن نفسي فأستغرب أنني أتحدث أيضا عـن تـاريخ وجغرافيا، أقول هذه مفردات عمري ثم أقول ليست مفردات عمري سوى باب يفتح على زمان ومكان.

العلاقة الثانية علاقتي باللغة العربية التي أرى فيها وطنًا يمتد من قرآن العرب إلى نداء البائع المتجول، ومن النشـيد الوطني على لسان الأطفال في صباح المدرسة إلى حـديث السياسي الأفّاق أرى في العربية وطنًـا متراميـا، واضـحا وغامضا، أليفًا ومدهشًا وفي بعض الأحيان مربكًـا، أعرفـه ولا أحيط به، أسكنه وأعرف أيضا أنه يسكنني وأنني في كل قول وفعل أحمل خاتمه وعلامتـه. العربيـة أداتـي ولكـن الصحيح أيضا أنني أداة من أدواتها، هي كتابي الذي تضـم صفحاته إرثي وحكاياتي مع الزمان، وطموحي أن أضـيف سطرا جديدا إلى سطوره.

وإن كانت العلاقة باللغة ومن ورائهـا الثقافـة واللغـة القوميتان علاقة موروثة ومتكسبة في آن واحد فإن العلاقـة بحرفة الكتابة (مع افتراض وجود الموهبـة) سـعى حثيـث

واجتهاد وتعرف وتتبع ومراقبة واكتشاف وتحصيل؟، هي في رأيي اكتساب صرف.

وفي ورشة الكتابة أرى نفسي تلميذة ينهكها ويجهدها حل المعادلات ثم يملؤها زهو أهوج ساعة الوصول إلى حلـول، تتوارى الصغيرة خلف امرأة تملؤها الثقة والفرح والاعتداد، ولكن اللحظة لا تدوم، تعود التلميذة تقضـم أظافرهـا أمـام معادلة جديدة أو أمام السؤال: "هل أفلحت؟".

أنتبه الآن إلى أنني في اجتهادي لتوضـيح مـا أظنـه متطلبات الكتابة قد قدمت العلاقة باللغـة وبحرفـة الكتابـة وكأنها ثلاثة أمور منفصلة وهي ليسـت كـذلك إذ تتـداخل وتتشابك لأن إنتاج الواقع كتابة يتم باللغة فهي وعاؤه وأداته وليست الحرفة مهارة معلقة في الهواء قائمة بـذاتها ولكنهـا أدوات يكتشف نفعها في ورشة التعامل مع مادة بعينها قوامها الواقع واللغة معا، ثم أنها أداة لضبط المؤشر على الموجـة الصحيحة التي تسمح بانتقال الرسالة بلا تشويش.

ثم تبقى الكتابة بعد ذلك حالة خاصة فـي كـل مـرة، مشروعا، إلى حد ما، قائما بذاتـه لـه دوافعـه وملابسـاته ومقاصده.

قلت إنني أحب الكتابة لأنني أحبها وأيضا لأن الموت قريب، قلت إن الواقع يشعرني بالوحشة وإن الصمت يزيد وحشتي والبوح يفتح بابي فأذهب إلى الآخرين. أو يأتون إلي، وألمحت أنني أكتب لأنني منحازة (أعني العنصر الأيديولوجي فيما أكتب وأعتقد أنه دائما هناك في أية كتابة) ولكن لو سألتموني الآن هل تكتبين لكسب الآخرين إلى رؤيتك؟ سأجيب بلا تردد: ليس هذا سوى جزء من دوافعي، أكتب لأنني أحب الكتابة وأحب الكتابة لأن الحياة تستوقفني، تدهشني، تشغلني، تستوعبني، تربكني وتخيفني، وأنا مولعة بها.